الأَدَبُ الشَّعبِيُّ العَرَبِيُّ
أَجْمَلُ هَدَايَاهُ لِلْفِكْرِ العَالَمِيِّ

فى سنة ١٧٠٤ ظهر فى باريس الجزء الأول من الترجمة الفرنسية التى صنعها أنطوان جالان Antoine Galland (١٦٤٦ ـ ١٧١٥ م) لقصص ألف ليلة فأثارت فى الناس عاصفة من الإعجاب والتشوق ، ومع أن الحكايات التى يتضمنها المجلد الأول من ألف ليلة وليلة ليست أحسن ما فى تلك المجموعة الفريدة من الأدب الشعبى العربى . إلا أن إعجاب الناس بذلك المجلد الأول كان عظيماً ربما لأنه يتضمن فى بدايته الوعاء العام الذى يربط الحكايات كلها بعضها إلى بعض ، وهو موضوع الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان ، وهو الموضوع الذى اشتهر عندنا باسم شهر زاد بعد أن أعاد توفيق الحكيم صياغته فى قالب فكرى مسرحى رفيع يدور حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة .

هذا الوعاء العام فى صورته كما وردت فى أصل ألف ليلة بالغ الجمال والفتنة ، فهو ليس مجرد حكاية الملك شهريار مع شهر زاد ابنة الوزير التى ابتكرت حكاية تسلية الملك كل ليلة بحكاية تتوقف بها عند كل فجر عند نقطة تشويق أو « ساسبنس » ، لكى يبقى عليها الملك ولا يقتلها كما فعل بسابقاتها ، بل إنها تضم قصصًا أخرى لا تقل عن هذه طرافة ، فهناك قصة الملك شاه زمان مع زوجته والعبد الذى فاجأهما معاً فقتلهما ، وهناك قصة شهريار وامرأته وجواريها العشرين وما كن يفعلنه كل يوم من خيانة شهريار ، وهناك حكاية الجنى الذى اختطف فتاة فاتنة ليلة عرسها وحبسها فى صندوق وضعه فى قاع البحر حتى إذا اشتاق إليها مضى فأخرجه وفتحه وأخرج البنت واستمتع بها ثم استلقى واضعًا رأسه على حجرها ساعة ، ثم أعادها إلى الصندوق ووضعه فى قاع البحر ومع هذا كله فقد استطاعت هذه الماكرة أن تنتقم منه ؛ فقد خانته مع سبعمائة وخمسين رجلاً أضافت إليهم شهريار وأخاه ، وحكاية هذه البنت مع الجنى هى التى جعلت الأخوين يتعزيان عما فعلت نساؤهما معهما ، لأن المرأة منا ـ كما قالت هذه الماكرة للملكين الأخوين ـ إذا أرادت أمرًا لا يغلبها شىء ، كما قال بعضهم :

لا تأمنن إلى النساء ... ولا تثق بعهودهن
فرضاؤهن وسخطهن ... والغَدْرُ حشو ثيابهن
بحديث يوسف فاعتبر ... متحذرًا من كيدهن
أو ما ترى إبليس (م) ... انسرج آدمًا من أجلهن

هذا الوعاء القصصى الطريف الذى يخرج من القصة ومن هذه الأخيرة قصة ثالثة ورابعة وخامسة وكلها قصص طريف جذاب شائق ، والقصص كلها ساذجة فى ظاهرها ولكنها عميقة فى باطنها ، هذا كله إلى جانب ما أطلع به الرجال منذ الأزل من الخوف من غدر النساء وما تناولته الأخبار من ذكاء النساء وسعة حيلهن ، هذا هو الذى أعجب الفرنسيين وجعلهم يقبلون على مطالعة هذا النوع الطريف من القصص والحكايات ؛ لأن القرن الثامن عشر كله كان فى معظم بلاد أوروبا عصر تدهور خلقى ، فلكل رجل مهما كان مركزه من الملك إلى الوزير إلى القس إلى المحترف الصغير له عشيقته أو عشيقاته والسيدات المستهترات Les Jemes Go Lantes كن طرائف ذلك المجتمع ، فوجد الناس فى حكايات ألف ليلة وليلة ما هو أطرف وألطف مما كانوا يحكونه عن عشيقات الملوك والفرسان والقساوسة ، وفى ذلك العصر وقعت حادثة الدوقة الغنية صاحبة الأملاك الواسعة فى جنوبى فرنسا ؛ فبنت ديرًا جعلت فيه أربعين راهبًا يختزنون فى ديرهم براميل النبيذ التى تملكها الدوقة فكانت تخرج لهم كل ليلة برميلاً فيتهافتون عليه يشربون كأسًا بعد كأس بدلاً من الصلاة ، فإذا استولت الخمر على رءوسهم أقبلت وقضت ليلتها معهم ، وعندما اعترض على ذلك واحد منهم وحرض إخوانه على رفض الشراب للانصراف للعبادة والصلاة ؛ أمرت بإخراج أربعين برميلاً أغرقت فى كل واحد منها راهبًا ، وقالت : هذا جزاؤكم رفضتم أن تشربوا الخمر ففيها وبها تموتون !

طبيعى إذن أن يقبل الناس فى فرنسا على تلك القصص العربية التى قدمها لهم انطوان جالان فمضى يقدم لهم جزءًا بعد جزء حتى بلغت أجزاؤها تسعًا عام وفاته سنة ١٧١٥ ، وبعد عامين من وفاته نشر المجلد الحادى عشر سنة ١٧١٧ م .

وتوالت طبعات هذا المجموع الفريد من القصص الشعبى الذى أصبح عنوانه علمًا

obeikandl.com

من أعلام الفكر العالمى : Lesmilleetuna Nuits Cantes / Arabes Tsactuits en Jancai وترجم إلى الإنجليزية بجزء من عنوانه فسمى Arabian Nights .

وكما هى عادة الأوروبيين فى كل ما يرون فيه نفعًا لهم أو متعة وطرافة مضوا يبحثون ويدرسون ، فتدافع العلماء يبحثون عن مخطوطات ألف ليلة وتاريخها ويترجمونها إلى لغاتهم ، وعندما طبعت مطبعة بولاق نص ألف ليلة الكامل سنة ١٨٣٥ م ، أقبل عليها وترجمها إلى الإنجليزية ذلك المستشرق الأيرلندى العجيب إدوارد وليام لين الذى ترجم ضمن ما ترجم قاموس لسان العرب لابن منظور كاملاً ، ترجم هذا الرجل ألف ليلة كاملة وأخرجها للناس فى عشرة مجلدات (١٨٣٨ ـ ١٨٤٨ م) وأسرع المستشرق الألمانى مكسميليان هاينست Macmilian Hapnsht إلى تونس حيث أتى بنسخة مخطوطة من ألف ليلة وترجمها إلى الألمانية ونشرها فى برزلاد (١٨٢٥ ـ ١٨٤٣ م) واستمرت الترجمات تتوالى والأبحاث تتوارد حتى فرغ لألف ليلة واحد من أكابر المستشرقين الألمان وهو أنيوليتمان Enua Littmamn ونحن نعرفه جيدًا فقد كان من أساتذة الجامعة المصرية الأهلية التى أنشئت سنة ١٩٠٨ م ، وأخرج للناس فيما بين سنتى (١٩٢١ ـ ١٩٢٨ م) ترجمة ألمانية للنص الكامل المحقق دون تهذيب أو تعديل لألف ليلة فى خمس مجلدات ، ثم أتبعها بمجلد سادس وضمنه أوسع وأعمق دراسة لذلك الأثر الأدبى العظيم الذى أصبح معتمد الباحثين جميعًا عن أصل هذه الحكايات وتاريخها وتحليل مادتها ، وتتبعها منذ كانت أسطورة هندية لا قيمة لها نقلت إلى الفارسية فأخذت بعض المادة القصصية من هناك ، لأن المفكر الإيرانى تميز بالميل إلى القصص وابتكار الصور القصصية ، ولكن الإضافة الفارسية قليلة والذى زاد فى أهميتها فى الظاهر هم العرب الذين انتهت إليهم صياغة ألف ليلة فقد أحبوا أن يضيفوا إلى قصصهم طابع الغرابة فبحثوا لحكاياتهم عن مواطن بعيدة عجيبة حتى يستطيعوا أن يطلقوا لخيالهم العنان ، وهنا نجدهم يمعنون فى البحث عن المواطن العجيبة فيقولون مثلاً : حكى والله أعلم أنه كان فيما مضى من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم وله ولدان ، فكيف يكون من آل ساسان ثم يكون بجزائر الهند والصين ؟

وهذا يدل على أن هذه القصة قصة الملك شهريار وأخيه شاه زمان ، دخلت بلاد

العرب بدائيـة جدًا آتية من أصل بعيد وراء إيران لم يتبين القصـاص الشعبى استحالة وجود سـاسان فى جزائر الهند والصين ؛ لأنـه في الحقيقة كان يطلب الغـريب البعيد فى ذاته دون تدقيق .

وقد أخذت قصص ألف ليلة صورتها الأولى فى بغداد ربما فى القرن الهجري الثالث التاسع الميـلادى ، لأن المسعودي وهو من أهل القرن الـرابع الهجرى يذكرهـا باسمها الفارسى : هزار إنسانه (أى ألف خرافة) وقال : والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملـك والوزير وابنته وجـاريتها « كذا فى طبعة بـولاق » ، أما فى الطبعة المصرية الجاريـة وهى طبعة محمـد على صبيح فتقول ودايتهـا والأصح أختها ، وهما شيرا زاد ، ودينـا زاد ، ومثل كتـاب فرزه وسيماس ومـا فيهـا من أخبـار ملوك الهنـد والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، ومثلها من الكتب فى هذا المعنى .. (مروج الذهب طبعة باريس ١٩١٤ جـ ٤ / ٨٩ ـ ٩٠) وهذا الخبر يدل على أن ألف ليلة فى دورها البغدادى كانت تقتصر على حكاية شهر زاد .

وفى القاهـرة ربما ابتداء من العصر الفـاطمى ـ أخـذت مجموعـة القصص تتجمع وتأخذ صيغـة وأسلوبًـا واحدًا ـ وأضيـف إليها حكايـات جديـدة ذات طابـع مصرى خالص ، وبعـض هذه الحكايـات المصرية جميل محكم الصيـاغة مثل حكـاية مسرور التاجـر مع معشوقتـه زين المواصف ، وبعضها ضعيـف مبتذل مثل حكايـة أبى صير وأبى قير ، ولكن القصص كلها أعيدت صياغتها فى القـاهرة والغالب أن إعادة الصياغة تمت على ألسنـة القصاصين الشعبيين فى المقـاهى ، ولم تكتب القصص إلا فى منتصف العصر المملوكى ، فإن الأسلـوب ركيك جدًا بل عامى وجهل الكاتب واضح فهـو لا يكاد يقيم عبارة صحيحـة ، ومن عجيب الأمر أن هـذه الركاكـة نفسها تضفى على القصص حلاوة خاصة ؛ لأنها تؤكد لنا أن هذا القصاص صادق ، وأنه صانعه وواضعه مباشرة دون تزويق ، وهذا هو الجميل ؛ لأن ألف ليلة فى هذه الصيـاغة تعتبر تصويرًا للأحوال الاجتماعية التى صدرت عنهـا والعقلية التى كتبتها حتى الشعر هنـا عامى الروح وإن كان صـاحبه ـــ الكاتب ـ قـد حاول أن يجعلـه شعرًا فصيحًا ، خـذ مثلاً هـذه الأبيات الطريفة التى تقرأها فى قصة الصياد مع العفاريت :

يـــا حـــرقـــة الـــدهـــر كفى   إن لم تكفـــــى فَعفًـــــى

فـــــــلا بحظى أعطـــى   ولا بصنعـــــــــة كفـــى

خـــــرجـــت أطلب رزقـــى   وجـــــدت رزقى تـــــوف

كـم جـــاهـل فى ظهـــور   وعـــــــــــــالم متخفـــى

ونحن عنـدمـا نقرأ ألف ليلـة ينبغى أن نـذكـر دائماً أنها تصور أحـلام الفقـراء المتاعيس ، فإن المواطن المسلم أو العـربى المقهور وضع أمله فى العفـريت الذى يعصف بالسلاطين ، وانتظر الخلاص من تعاسته فى كرم الخالق سبحانه القادر على العطاء من غير حساب ، فكثر الكلام عن الكنوز والسحرة والساحرات .. والفقير المعدم الذى سئم امرأته التى يـراها أمامه ليل نهار فى أسمالها الباليـة ووجهها البائس جلس فى مقهى فى الليل يستمع إلى أوصـاف بدر البـدور وست الحسن والجمال وتصـورهـا بين يديـه ، وحَلَّق به الحلم فتصـور أمه قمـر الزمـان ، وهنا تبدو لنـا أوصاف النســاء الجميلة ـ والخارجة عن الحشمـة أحيانًا ـ تصـويرًا لأحلام أهل تلك العصـور وشوقهم إلى المرأة الجميلة البيضـاء السمينة التى لا يتمتع بها إلا المماليك والسـلاطين ، واستمع مثلاً إلى صورة الجمال الأنثوى كما تصوره الحَمَّـال فى قصة الحَمَّـال والبنات : « فنظر الحمال إلى من فتح له الباب فوجدها صبيـة رشيقة القد ، قاعدة النهد ، ذات حسن وجمال وقَدٍّ واعتدال ، وجبين كَغُـرَّةِ الهلال ، وعيون كعيـون الغزلان ، وحـواجب كهـلال رمضان ، وخدود مثل شقائق النعمان ، وفم كخاتـم سليمان ، ووجه كالبدر فى الإشراق ، ونهدين كـرمانتين بـاتفـاق ، وبطن مطوى تحت الثيـاب كطى السجل للكتـاب » . فهذه فتـاة الأحلام إذن كما تصورها الحَمَّـال الشقى وهو طول اليوم يحمل الأثقال ، وقد تعود أن يحمل البضائع وحـوائج الناس حتى الباب فقـط ، وهنا يعطى أجره الـزهيد ويصرف ، ولكنه فى عالم الأحـلام ينفتح أمامه الباب على يد هذه الجاريـة الحسناء ويدخل القصر فيجد بنات أخريات يداعبنه ويطعمنه ألذ الطعام ويسقينه أحسن الشراب » .

ولكن أكثر ما فتن الناس فى الغرب فى ألـف ليلة هو ذلك الخيال الخصب فى رحلات السنـدباد مثـلاً ، فهناك خيـال طلق يخلق بحارًا ومحيطـات وسفنًا وأسماكًـا فى حجم الجزائر وطيورًا تفـوق فى ضخامتهـا أحجام أضخـم الطائرات فى أيـامنا ، وطـائر الرخ

يبدو لنا كأنه طائرة جامبو هائلة والسندباد مربوط فى رجل الرخ ، وكأنه معلق فى صندوق عجلات الطائرة ، وهنا عفاريت وجنيات ومردة ضخام لكل منها عين واحدة وسط وجهه ، وهنا أخطار تتوالى ومغامرات بلا نهاية ، وفى كل مرة يعود التاجر سليمًا معافى إلى البصرة ليحمد الله الرحمن الرحيم ويسجد له سجود الشاكرين ، ومثل هذا يقال عن مصباح علاء الدين والمارد الذى يخرج من القمقم وحكايات على بابا والأربعين حرامى ، إلى آخر هذا القصص الجميل الذى كان سمار المقاهى يهربون من عالم حياتهم الكثير ، والقصاص يحكى وشاعر الربابة ينشد ثم ينقضى ذلك كله وينفض الشاعر ويعود التعيس إلى بيت الشقاء .

وحكايات ألف ليلة وليلة تسىء الظن بالنساء ، وهذه هى صورة المرأة فى عقل الرجل فى العصور الوسطى ، وإذا كان العربى المسلم قد وكل المرأة إلى دينها وأمانتها وحسن تربيتها ، فإن الأوروبى لم يطمئن حتى إلى ذلك وابتكر حزام العفة تلبسه المرأة طوال غياب زوجها ، ولكن مؤلفى القصص لم يحرموا المرأة نصيبها من الأحلام فهى تحلم بالشاب الجميل والرجل الذى يملأ العين ، ولهذا ابتكروا للنساء صورة التاجر الشاب الوسيم الحسن البصرى والأمير قمر الزمان ، وهنا أيضًا نجد المرأة ترسم صورة محبوبها الذى تحلم به وتُمنِّى نفسها بالحصول عليه والهرب إليه من زوجها الشقى الفقير .

وبعض حكايات ألف ليلة أصبحت موضوعات قصصية ترددت بعد ذلك فى الأدب العالمى كله ، ولم تلق حكاية من النجاح فى هذا المجال ما لقيته قصة « النائم الذى صحا » وهى تحكى لنا قصة رجل فقير تعيس أدركه النوم إلى جوار حائط فى الطريق فمر به رجل غنى أو ملك فى موكبه فزاد التندر به فأمر غلمانه بأخذه إلى القصر وهناك سقوه حتى غاب عن الوعى ، ثم ألبسوه فاخر الثياب بعد أن أدخلوه الحمام فلما أفاق وجد نفسه فى ثياب الأمراء فى قصر كأنه فى جنة الخلد ، ووضعوا أمامه ألذ الأطعمة والأشربة ، وجعلوا يتسلون بما يصدر عنه وهو يتصور أن الله رحمه وأدخله عالم السعداء إلى آخر أيامه ، فلما فرغوا من التندر به انتظروا حتى غلبه الشراب ونام ، فلما صحا وجد نفسه فى نفس أسماله التى كان فيها عندما وجدوه ناعسًا إلى جوار الجدار فى الطريق .

هذا هو القالب الذى أخذه الأديب الأسبانى الأشهر كالديرون دى لاباركا ، وصبه فى مسرحيته الخالدة « إنما الحياة حلم » La Nida es Suena وحكى فيه حكاية الملك سجيموندو الذى فقد ملكه فى عالم الواقع ووجده فى عالم الأحلام ، وفى مونولوجاتها الطويلة عرض كالديرون فلسفته فى الحياة وذلك أيضًا هو القالب الذى صب فيه شكسبير مسرحيته « النوء » The Tangest واستعار الخيال العربى ليحكى فيه قصة الملك الذى نفاه أعداؤه فى جزيرة ، وهناك التقى بالصبى الملائكى اللطيف اربيل .

وفى نهاية مجموعة ألف ليلة تجد قصة جميلة سأحكيها لك فى مقام قائم بذاته بعد الفراغ من هذه الدراسة هى قصة الجارية تودد ، وهى حكاية جارية معلمة فاقت العلماء بعلمها وأحاطتها بكل العلوم الإسلامية فى العصر الذهبى ، وتمتعت إلى جانب ذلك بوفاء عظيم ، هذه القصة التي وصلت إلى الأندلس قبل أن يترجم جالان ألف ليلة إلى الفرنسية وقد أخذها أديب أسبانى آخر كبير هو لاب دى فيجا Lap De Vega وأنشأ على مثالها قصة الفتاة تيودور La Dancelle Teadar حتى الاسم مأخوذ عن العربية ، فإن الذين ترجموا قصة الجارية تودد ، فأخذها لاب دى فيجا وجعلها الآنسة تيودور ، وألف ليلة حافلة بالقصص القصيرة التى ترد فى تضاعيف الحكايات الطويلة ، وهذه القصص القصيرة دائماً حكايات حلوة قصيرة ، وقد أشرت فيما سبق إلى قصة الفتاة التى خطفها المارد وحبسها فى صندوق وضعه فى قاع البحر ليخرجه ويستمتع بها وقتما يشاء ، فانتقمت منه وخانته سبعمائة واثنتين وخمسين مرة ، فهذه الحكاية أخذها أناتول فرانس وحكاها بأسلوبه الجميل المشرق فلقيت من الناس إعجابًا عظيمًا ، أما حكاية قمر الزمان وبدر البدور فقد أخذها الموسيقى النمسوى فرانز ليهار وأنشأ عليها أوبريت من ألطف ما عمل وسماها « أبو الحسن » .

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتتبع الأثر البعيد الذى كان لألف ليلة فى الفكر الغربى كله ، فإن تلك المجموعة من القصص الشعبى أصبحت من زمن طويل جزءًا من الفكر الغربى بل الحضارة الغربية ، وما أكثر الروايات والمحلات والعطور التى تحمل أسماء ألف ليلة وشهر زاد وعلاء الدين والسندباد وعلى بابا ، والسبب فى ذلك أن هذه الحكايات الشعبية التى تبدو فى مجموعها ساذجة بل بدائية تنطوى على حكمة إنسانية كبرى هى قصص صادق ، خرج من قلوب ناس طيبين فلقى القبول من كل القلوب

الطيبة ، ودون تكلف أو حتى تحمل وجدت الإنسانية فى تلك الأحلام حكمة الحياة الكبرى فالحياة كلها فى نهاية الأمر حلم ، وهنا فى ألف ليلة أحلام الحب والنعيم والغنى والجاه والمغامرات والعجائب والإيمان بالله وقدرته ، وهذه كلها موضوعات إنسانية عامة ، ومن هنا جاءت عالمية ألف ليلة وهى رغم ما يبدو فيها من سوء الظن بالدنيا لا تفقد الأمل فى فرج الله أبدًا ، وحكاية معروف الإسكافى أكبر مثال لذلك ، فذلك الإسكافى المسكين الذى يعانى غصص الحياة من امرأته سليطة اللسان .. « فاطمة العرة » ينتهى به الأمر إلى الهرب من وطنه نجاة بنفسه من تعقب امرأته له وشكواها إياه إلى القاضى مرة بعد أخرى ، فيهرب إلى عوالم بعيدة قاصية حيث يصيب المال الكثير ثم يدركه الفقر مرة بعد أخرى ، وفى النهاية يرزق المال الوفير ثم يصبح ملكًا عظيمًا ، ويتزوج امرأة جميلة فينجب ابنًا وسيمًا وفاطمة العرة تلاحق معروفًا حتى تكاد تظفر به وتراه نائماً وفى أصبعه خاتم سليمان فتسللت إلى القصر ومدت يدها لتسرق الخاتم وهنا هوى عليها سيف الأمير ابن الملك معروف وهنا تقرأ : « ثم إن الملك معروفًا زعق على أتباعه فأتوه مسرعين فأخبرهم بما فعلته زوجته فاطمة العرة ، وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها فى مكان إلى الصباح ففعلوا كما أمرهم ، ثم وكل بها جماعة من الخدام فغسلوها وكفنوها وعملوا لها مشهدًا ودفنوها ، وما كان مجيئها من مصر إلا لترابها والله در من قال :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وهناك نوع آخر من الأدب الشعبى العربى نجده دائماً على هامش الحياة الأدبية لأن أصحابه كانوا ثوارًا على مجتمعهم منكرين لما فيه ، وهم فى الأدب الجاهلى يسمون الشعراء الصعاليك لأنهم كانوا أعزاء النفوس ، لا يدخلون فى قوالب الحياة الراتبة ومثالهم المشهور فى الجاهلية الشنفرى وهو عمرو بن مالك الأزدى المتوفى فى الجاهلية سنة ٥٢٥ م ، ولم يعجبه قومه لأنه اتهمهم بالجبن ، فانخلع عنهم وانضم إلى الشعراء الصعاليك وقال :

وفى الأرض منأى للكريم من الأذى وفيها لمن شاء القلى متعزل

وخاصم قومه وأنشأ فيهم لاميته المشهورة بلامية العرب ومطلعها :

أقيمـــوا بنى أمـى صـــدور مطيكم فإنـى إلى قـــوم ســـواكـم لأميل

ولى دونكم أهلـــون سيـــد عملس وأرقط زهلـــول وعـــرفـاء جيل

وخرج إلى البرية وصار يعيش من الغارة على القبـائل التى يجبن رجالها عن الدفاع عن أنفسهم وحماية الضعفاء ، مثله فى ذلك مثل عـروة بن الورد وأهله الذين لجأ إليهم وهم الصعاليك الجوالون أمثاله الذين يألفون القفر والوحوش أكثر مما يألفون الناس ، ولامية العرب لم يضعها نقاد الأدب العـربى بين عيون الشعر الجاهلى بل إن محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء » لم يذكر فى كفاية الشنفرى أو عروة ابن الورد ، مع أن لاميـة العرب هى أجمل ما قيل فى العـرب وأصدقه وأكثره إخـلاصًا ، واقرأ عن أولئك الصعـاليك كتاب الدكتـور يوسف خليفى لترى أن الصعاليك كـانوا فى أرفع مستويـات الشاعـرية والصـدق الأدبى ، بل إن البروسيين الألمان عندمـا وضعوا نشيدهم القومى أخذوا من لامية الشنفرى بعض معانيها ، بعد أن ترجمـها إلى الألمانية المستشرق النمساوى هامر بورجشتال Hammer Burgtell .

وعلى طول تاريخ الأدب العربى يسير تيار أدب الصعـاليك ، وهو يدخل ضمن ما نسميه اليوم بـالأدب الشعبى ويتجلى هذا التيار الشعبى فى أدب المقامـات : قطعة أدبية مصـوغة فى قـالب من السجع تقص حكـاية صعلـوك ذكى مثقف يعيش من التسـول والكديـة وسعة الحيلة ، فأدب المقـامات صعلوك بموضـوعه مسجوع متكلف بقـالبه ، وهذا التكلف أفقده قيمته ، وفى القرن الرابع الهجرى يظهـر بديع الزمان الهمذانى وهو أبـو الفضل أحمد بن الحسين المتـوفى سنـة (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) ويصـوغ إحـدى وخمسين مقامة كل منها مشروع قصة لا تكمـل أبدًا ، إنما هي معرض ألفاظ وسجعات وحيل وطرائف يرويها أديب وهمى يسمى عيسى بن هشام ، وبطلها صعلوك متنكر فى صورة تـاجر متجـول يدعى أبا الفتح الإسكنـدرى وهو صعلـوك واسع الحيلة لطيف المدخل بليغ العبارة خفيف الظل يقول: إنه أسعد أهل زمـانه لأنه يعيش بالتسول فهو على بريـد الدنيا ومساحـة الأرض وخليفة ذى القرنين الـذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل لا يخاف البؤس يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة .

وبعد ذلك بنحو القرن تظهر مقامات الحريرى ، وهو أبو القاسم محمد بن على الذى ولد فى البصرة وعاش سواحًا يتسول بمقاماته (٤٤٦ ــ ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ ـ ١٢٢٢ م) وينشىء خمسين مقامة على غرار مقامات البديع ، ولكنها أقل قيمة لإسراف الرجل فى السجع والإغراب ، وراوى مقامات الحريرى رجل وهمى هو الحارث بن همام وبطلها أبو زيد السروجى وهو صعلوك متسول صاحب حيل ، حياته كلها احتيال للحصول على المال والطعام ولكنه واسع الثقافة حاد الذكاء بليغ العبارة ، وقد بلغ الحريرى بمقاماته من الشهرة ما لا يستحق ، بل إن سلفستردى ساس المستشرق الكبير نشر المقامات فى أدق صورة وعمل لها فهرسًا للألفاظ لأن الناس كانوا يقولون فى القرن الماضى : إن مقامات الحريرى أبلغ ما أنشأه العرب مع أنها أسوأ وأثقل وأكذب مقال للنثر العربى .

ولكن الصعلوك الحقيقى الذى تستطيع أن تقول إنه أديب موهوب صادق ومتسول متكسب هو الوهرانى التلمسانى الذى اكتشفنا مقاماته أخيرًا ، وقام على نشرها الأستاذان إبراهيم شعلان ومحمد نغشى (القاهرة ١٩٦٨) ونحن لا نعرف عن الوهرانى إلا أنه ركن الدين محمد بن محرز بن محمد ، وأنه توفى سنة (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) ، ولم يؤرخ له أحد لأنه كان صعلوكًا يعيش على هامش الحياة الفكرية التقليدية ولكن كتاباته تكشف عن نفسه وظروف حياته لأنه كأى صعلوك فى تاريخ الفكر الإنسانى يعيش الحياة الواقعة دون تزويق ، وهو نفسه جزء من ذلك الواقع وهو رجل مثقف جدًا ، ففى المقامة الأولى من كتاب مقاماته وصناماته يتحدث ساخرًا عن كل دول زمانه من أقصى الغرب إلى إيران ويختمها بقوله متحدثًا عن عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين فى المغرب ، فصنعت له ذوو التيجان وخدمة الإنس والجان ولو أن للقلم لسانًا وللورقة إنسانًا لتألمت وتظلمت ولأنشدتك فى الملا قول الشيخ أبى العلاء :

جلوا صارماً وتلوا باطلاً وقالوا : صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت عن هذا أنجح ومسالمة الأفاعى أصلح ، وهذه مقالة مفكر حر يشعر أنه مخنوق ولا يستطيع أن يفصح عما فى صدره ، والمقام الأول فى الكتاب (ص ١٧ وما بعدها) تحفة أدبية فكرية يصف الرجل فيها رحلة تخيلها فى عالم الإسلام لا تقل طرافة عن « رسالة الغفران » ، بل هى أشد لذعًا وأقسى نقدًا ، والمقام مصوغ فى قالب

مقامة بديعة ذات خيال واسع وعلم عظيم ، وفيها يلم بالجنة والنار ويستعرض رجال التاريخ الإسلامى من أيام معاوية بن أبى سفيان ويجعلهم كلهم فى النار .

وإذا كان بديع الزمان قد تستر خلف شخصية الصعلوك عيسى بن هشام ، والحريرى اخترع شخصية الصعلوك أبى زيد السروجى ، فإن الوهرانى فى مقاماته هو الصعلوك نفسه ، ومن هنا فهو يصور لنا شخصية الصعلوك أصدق تصوير . والطريف أن شخصية الصعلوك انتقلت إلى الأدب الإسبانى ربما عن طريق مقامات الحريرى ، فقد اشتهر أمرها فى الأندلس وأكبر شراح مقامات الحريرى هو الشريشى الأندلسى . وقد فتن أدباء الإسبان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بشخصية الصعلوك العربى ، ونشأ عندهم نوع من القصص الجميل يسمى بقصص الصعاليك Lanaveliareaco والبكارو Picora الإسبانى هو بالضبط الصعلوك العربى . وقصص الصعاليك خلف لنا آثارًا قصصية بديعة فى الأدب الإسبانى أشهرها وأجملها هى قصة لاتاريو دى تورميس La tari llede tormes التى تنسب أحيانًا إلى رجل يسمى قزمان الفاراتشى Cuzmande Alfarache ربما كان عربيًا مورسيكياً متنصرًا اسمه قزمان بن الفرج ، وتنسب أحيانًا إلى ماتيو اليمان Mates Alemak ولاتاريو بطل القصة غلام مسكين لطيف يعمل قائدًا لقس أعمى غاية فى التجل ، ومغامرات لاتاريو أو عصا الأعمى من هذا القس البغيض ، وغيره ذات طابع عربى خالص مقتبس من المقامات العربية ، وواحد من أكبر الأدباء والمؤلفين الإسبان وهو منندز يلايو Marcaline Mauomler يفخر بالفوفيلا بيكاريسكا ويقرر أنها من أجمل هدايا الفكر العربى للفكر الإسبانى .

وكنت أحب أن أحدثك بإفاضة عن أعظم صعلوك فى تاريخ الأدب الشعبى العربى ، وهو الزجال الشاعر الأندلسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى ٢ أكتوبر ١١٦٢م خلال العصر الموحدى ، وهو الزجال القديم الوحيد الذى عثرنا على ديوانه كاملاً وهو مكتوب بلغة أندلسية : عربية أسبانية مغربية ، ولكى تفهم ابن قزمان لا بد أن تعرف هذه اللغات ولا بد أن تكون عالمًا بفقه اللغات أى فيلولوجيا ، ولهذا فإن أحدًا من العرب لم يقرأ أزجال ابن قزمان إلا الدكتور عبد العزيز الأهوانى وكاتب هذه السطور ، أما بقية من درسوه وفهموه فمن الأوربيين : خوليان ريبرا ونيكل وليفى بروفنسال وخاصة

غرسيه غـومس ، وقد نُشِـرَ الديوان وطُبِعَ بحـروف لاتينية بعنوان El lanciones de lamguromon وألف فيه غـرسيه كتـابًا ضخمًا فى ١٥٠٠ صفحة عنـوانه To de Jlr Gyman أى ابن قزمان كاملاً ، وهو يؤكد أن هذا الرجل أعظم عبقرية شاعرية أندلسية وهو على حق ، وابن قزمان صعلوك يسكن حجرة يصفها هو بأنها قاحلة مع أن أباه أو عمه كان وزيرًا ، وأزجاله كلها تصوير واقعى رائع للمجتمع الأندلسى فى عصر التدهور وهو سكير وزيـر نساء ومتسـول ، ولكنـه موهوب طريف سـاحر فى أسلوبـه وآية فى الذكاء ..

* * *

عَصْرُ الرُّكُودِ وَمَدَاهُ

الشائع الذى يجرى عليه التاريخ عندنا أن يقسم التاريخ العباسى إلى عصرين الأول والثانى : فالأول هو عصر القوة . والثانى هو عصر الضعف والتدهور . وقد آن أن نعيد النظر فى هذا التقسيم ، فإن العصر العباسى الثانى وهو عصر التدهور طويل جدًا يمتد من (٢٣٢ تقريبًا إلى ٦٥٦ هـ) ، وهى سنة استيلاء المغول على بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية فيها ، ثم إن الدولة العباسية والمجتمع الإسلامى من حولها دخل فى تطورات كثيرة غيرت شكل الخلافة وطبيعتها وصورة المجتمع الإسلامى وخصائصه خلال تلك الحقبة الطويلة جدًا من السنين ، ولهذا فإنى أقترح هنا ـ وهذه وجهة نظر ـ أن نقسم العصر العباسى إلى خمسة عصور لكل منها طابعه وخصائصه .

ومن هنا فقد أصبحت تسمية « العباسية » زائفة وتحتاج إلى استبدال ، وما دام هذا التاريخ الذى أكتبه يمثل فى جملته وجهة نظر جديدة ودعوة إلى إعادة النظر فى التاريخ الإسلامى العام وحضارته وتاريخ الفكر العربى ، فإنى أطرح رأيًا جديدًا وتقسيمًا جديدًا فيما يلى :

١ ـ **العصر العباسى الأول** : وهو عصر قوة الدولة وصعودها وازدهارها السياسى .

ويمتد من بداية خلافة أبى العباس السفاح وينتهى بنهاية خلافة أبى جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم (٧٥٠ ـ ١ ديسمبر ٨٤٧ م / ١٣ ربيع الأول ١٣٢ ـ ٢٣ ذى الحجة ٢٣٢ هـ / ١٣ نوفمبر) .

٢ ـ **العصر العباسى الثانى** : وهو عصر تدهور الخلافة وسيطرة الجند التركى عليها من بداية خلافة المتوكل أبى الفضل جعفر بن المعتصم إلى بداية عصر أمراء الأمراء ، أى القادة المفوضين فى الحكم باسم الخليفة المستضعف ، ويدخل فيها عصر سيادة البويهيين وإليهم تنتهى ذروة عصر أمراء الأمراء (٢٣ ذو الحجة ٢٣٢ إلى سنة ٤٧٤ هـ / ديسمبر ٨٤٧) إلى أن تبدأ سيطرة البويهيين على الخلافة فى (جمادى الأول ٣٣٤ / ديسمبر ٩٤٥) على يد معز الدولة أحمد بن بويه وتنتهى بطغرل بك أول سلاطين السلاجقة سنة ٤٤٧ .

٣ ـ العصر العباسى الثالث : ويبدأ من نهاية العصر البويهى وبداية العصر السلجوقى أثناء خلافة أبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر وهو السادس والعشرون من خلفاء بنى العباس باستيلاء طغرل بك على بغداد وتفويض الخليفة القائم بالله السلطة له ، وهذا العصر هو عصر سيادة الأتراك على شرق الدولة الإسلامية سيادة كاملة ، فلم يبق للخليفة ورجاله أو للعرب إلا سلطان ثانوى ، وينتهى باستيلاء المغول على بغداد (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ونهاية الخلافة العباسية فى بغداد .

٤ ـ العصر الرابع : وهو ليس عباسيًا ، إنما هو مغولى ؛ لأن الخلافة العباسية زالت من بغداد وسيطر المغول على شرق الدولة الإسلامية كله ، ودخلوا الإسلام وأقاموا دولة الأيليخات فى إيران والعراق ويمتد من سنة ٦٥٦ هـ وهى سنة سقوط بغداد ويستمر إلى سنة (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) وهو تاريخ بداية استيلاء الأتراك العثمانيين على شرق الدولة الإسلامية أيام السلطان سليم الأول ياووز ، ويتميز هذا العصر بسيادة المغول فى العراق وإيران ، والأيوبيين ، ثم المماليك البحرية فى مصر والشام والحجاز وينتهى بها ببداية العصر التركى العثمانى .

٥ ـ العصر الخامس : وهو العصر العثمانى الصفوى ، وفيه قامت الدولة الصفوية فى إيران وبسطت سلطانها على العراق حتى نهض الأتراك العثمانيون وأخرجوا الصفويين من العراق وأعادوه إلى سيادة السُّنة على يد السلطان سليم الأول ، أما بلاد الشام ومصر ثم بلاد ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت فى الدولة العثمانية ، ويستمر العصر العثمانى إلى دخول الحملة الفرنسية مصر (١٢١٥ هـ / ١٧٩٨ م) وبه يبدأ عصر النهوض الذى سنتحدث عنه لاحقًا .

* * *

وهذا التقسيم جديد ، وقد خالفت فيه التقسيمات التقليدية التى أصبحت عندنا قوالب جامدة لا تتغير ، وقد أقمت هذا التقسيم على أساس التحولات الاجتماعية والحضارية الحاسمة التى مرت على الجناح الشرقى من بلاد العروبة والإسلام ، لأن العصور هنا ليست سياسية فحسب بل هى اجتماعية ثقافية ، بل ديمغرافية أى

سكانية أيضًا ، فخلال العصرين الأخيرين (الرابع والخامس) ساد المغول أولاً ثم الأتراك ثم العثمانيون بعد ذلك ، والمغول بعد أن قضوا على خلافة بنى العباس أسلموا ، وحملوا لواء دولة الإسلام فى إيران والعراق وبعض الشام ، وأنشأوا دولاً تسمى دول الإيلخانات التى أدخل أمراؤها عناصر ثقافية مغولية فى إيران والعراق ، وبعض هذه الدول شيعية وبعضها سُنية ، وبلاد إيران والعراق وبعض نواحى الشام ما زالت تحمل آثار عصر الإيلخانات ، وعصر الصفويين والأتراك العثمانيين ، فالتركيب السياسى الاجتماعى فى إيران والعراق الذى أدخل هذه الخلافات المذهبية الحادة التى لا تزال هذه البلاد تعانيها إلى اليوم ، فقد كانت بلاد إيران مثلاً سُنية قبل الشاه إسماعيل الصفوى والشيخ صفى الدين الأردبيلى الذى تنسب إليه الدولة الصفوية كان سُنيًا ، ولكن إيران بدأت فى التحول إلى دولة شيعية أيام الشيخ حيدر الأردبيلى الذى تولى رياسة جماعة الصفويين سنة (٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م) ، ولم يكن اعتماده على الإيرانيين بل على التركمان ، ومعظم الإيرانيين الأصلاء أهل سُنة إلى يومنا هذا ، ولكن الشيعية حمل لواءها التركمان وهم أتراك مسلمون من وسط آسيا ، ومازالوا موجودين إلى اليوم فى جمهورية تركمانستان الداخلة فى الاتحاد السوفيتى سابقًا ، وجدير بالذكر أن الشيخ حيدر الأردبيلى تزوج من سيدة مسيحية روسية هى دسبينا ايكاترينا De-spina Ecatrine ابنة ملك مملكة طريزون المسيحية وقد أسلمت هذه السيدة على المذهب الشيعى ، وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين وأخذت تبسط سلطانها على كل الجناح الشرقى لبلاد الإسلام نهض لمقاومته إسماعيل الصفوى ابن الشيخ حيدر ، وقد كان الأتراك العثمانيون يرفضون لواء السُّنة ، وكان لا بد أن يقع الصراع بين الصفويين والعثمانيين فرفع إسماعيل الصفوى لواء الشيعة وتزعمه وعمل على نشره فى إيران بالقوة ، ولكنه انهزم أمام العثمانيين فى معركة نشالديران الحاسمة فى (رجب ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) ، واحتل السلطان سليم تبريز ثم أخلاها ولكنه أخرج وسط العراق وشماله من الشيعية ورد العراق إلى السُّنة ويخطىء من يظن أن أهل إيران كلهم شيعة ، بل إن غالبية الإيرانيين أهل سُنة ، والشيعة الإثنى عشرية هناك ـــ وهم الذين يسمون بالجعفرية ـ أقلية ، وكانوا مغلوبين على أمرهم بسبب استبداد التركمان الأتراك ، وكان إسماعيل الصفوي شيئًا يشبه آية الله روح الله الخمينى ، فقد كان شديد العصبية للشيعة وقد حول الشيعية إلى عصبية قومية ، الإثنى عشرية فى مواجهة الأتراك

العثمانيين السُّنيين وحتى محمد بهلوى وأخوه رضا بهلوى شاه إيران الأخير كان سُنيًا ، ثم تحول إلى الشيعة الإثنى عشرية ، وخلفه فى ذلك الشاه محمد رضا بهلوى آخر شاهات إيران وكان أشد عصبية فى شيعيته من الخمينى ، وكان يضمر للعرب والسُّنة كل شر ، وقد قصمه الله وقضى عليه بعد أن كان قد أعد قوة عسكرية رهيبة وبدأ العدوان على العرب باحتلال جزر أم موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى ، وهو المسئول عن عصبية الخمينى وآيات الله ، وهم أئمة الشيعة الإسماعيلية الاثنى عشرية الذين يحكمون إيران اليوم لأنه بجبروته الدموى سفح دماء الألوف ومن بينهم ابن آية الله روح الله الخمينى ونفاه من إيران إلى العراق ، والعراقيون لم يأذنوا له فى المقام فى بلادهم مراعاة لمشاعر الشاه فأخرجوه من بلادهم فلجأ إلى فرنسا واستقر فى باريس .

وأخذ يعد العدة للانتقام من الشاه دفاعًا عن مصير بقايا التركمان الذين أصبحوا إيرانيين مع الزمن ، وهؤلاء هم عصب الحركة الخمينية اليوم ولولا أن ثورتهم عليه نجحت لأبادهم الشاه ، وهذا يفسر لك استبسال الثائرين مع الخمينى على الشاه ، حتى أنهم كانوا يواجهون المدافع بأجسامهم ويستولون عليها ، وهذا يفسر لك أيضًا عداء الخمينى للنظام العراقى الحالى الذى طرده أيام كان منفيًا فى العراق ، فهو عداء انتقام لا من العرب فى جملتهم بل من رجال النظام العراقى البعثى الذين طردوه مجاملة للشاه ، ولهذا فإن أول مطالبهم اليوم هى إسقاط حزب البعث العراقى ونظامه . حقائق لا بد أن تعرفها لكى تفهم ما يدور هناك من صراع دموى اليوم وهو صراع غير قابل للحل إلا على أساس سقوط أحد النظامين : الخمينى أو البعثى العراقى . ونحن العرب قليلاً ما نفهم حقائق تاريخنا فنتحمس ضد الإيرانيين ونحسب ذلك دفاعًا عن العروبة ، وننسى أن العراق كان فى حربه مع إيران يصر على أن يسمى الإيرانيين بالمجوس ، وهم ليسوا مجوسًا ولا غالبيتهم شيعة إنما الأغلبية سُنية ، وكيف لا يغضب السُّنى الإيرانى عندما يقال إنه مجوسى ؟ وإن وحدة إيران لا بد أن تتفكك وتنشأ مكانها دويلات إيرانية تركمانية وخوارزمية وإيرانية وتركية وعربية .

وهذا الوصف الموجز لتطور الأوضاع السياسية فى العراق وشمال الشام وما يليها شرقًا إلى حدود الهند يشرح لك سبب وجود الأقليات الدينية الغريبة فى العراق والشام حتى لبنان ، فهناك عرب وأكراد وترك وتركمان وشراكسة ، وهناك شيعة من كل لون :

شيعية وإثنى عشرية وزيدية ، وهناك سُنة وهناك إسماعيلية حشاشون من الذين كانوا يريدون إبادة أهل السُّنة وعلى يدهم قُتِلَ نفر من أعلام السُّنة مثل عماد الدين زنكى أول أبطال الإسلام فى حربهم مع الصليبيين ، وهناك دروز وهم بقايا مذهب شيعى ابتكره رجل يسمى حمزة الدرزى أثناء سيادة الفاطميين على بلاد الشام أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وهم مسلمون لفظًا لا معنى ، وهناك نصيرية علوية وهم شيعة شواذ فى عقيدتهم أوشاب نصرانية يسمون أنفسهم مسلمين ، وهناك مساحرة يعبدون الشمس ، وهناك نحو عشر طوائف مسيحية منها واحدة هى من بقايا الصليبيين هم الموارنة الكاثوليك ، هنا نفهم لماذا قال ابن قيم الجوزية فى إحدى رسائله : « إن شر ما فى زمانه هو أنك لا تعرف من هو جارك فكل رجل من جيرانك من جنس ودين ، فلا أدرى وربك أين ذهب العرب ؟ وأين ذهب الإسلام ؟ » وهذا السؤال صادر عن ابن قيم الجوزية لا منى .

هذا الخليط الغريب من الأجناس والأشكال والأديان يضع أصبعك على السبب الأكبر فيما يسمى بالركود ، يجوب العالم الإسلامى سياسيًا وفكريًا وحضاريًا ، فقد انحلت عقدة الأمة واختفى العرب من ميدان السياسة والسيادة ، أو صاروا قلة لا تذكر أو تؤثر والسيادة أصبحت لأجناس المغول والترك والتركمان والأكراد والشركس القوقازيين بل الأرمن والكرج بضم الكاف ، وهؤلاء جميعًا كانوا حديثى عهد بالإسلام والذين أقبلوا على العربية منهم قليلون ، فانحط مستوى الفكر والمفكرين وكثرت المدارس وتكاثر فيها الطلاب وكلهم يدرسون المبادىء الصغيرة ، ولم تعد هناك بلاطات ملوك عظماء يجيزون أو يهبون الألوف ثم إن البلاد فى مجموعها قد افتقرت : الصليبيون نهبوا وخربوا من ناحية ، والمغول والتتار خربوا من ناحية أخرى ، بعد الحرب الصليبية الأولى جاءت الثانية والثالثة إلى التاسعة سوى القليل من الصليبيات التى لا تحسب ضمن كبار الصليبيات ، ومغامر فارس فرنسى يسمى جود فروا صاحب بوايون خرج من بلده لا يطمع فى أكثر من ضربة أو نهبة يجد نفسه ملكًا على مملكة تسمى بيت المقدس (١٠٩٩ ــ ١١٠٠ م) ، ويخلفه على العرش فى قلب بلاد الإسلام ثمانية عشر ملكًا ولا تنتهى إلا سنة ١٢٤٣ م ، وفارس آخر يسمى يوهيموند يجد نفسه أميرًا على إمارة واسعة قاعدتها أنطاكية (١٠٩٨ ــ ١١١٠م) ويعقبه على

إمارتها خمسة عشر أميرًا ولا تنتهى هذه الإمارة إلا سنة ١٢٦٨ م ، وكذلك الأمر مع إمارة الرها شمالى العراق التى استمرت من ١١١٨ إلى سنة ١١٤٤ م .

وقل شيئًا شبيهًا بذلك فى إمارة طرابلس وأحس الأوربيون ضعف ديار الإسلام فتقاطر الألوف من الفرسان والمهاجرين واللصوص على بلاد الشام وكل واحد من هؤلاء يقتل ويسرق وينهب ويستولى على الأراضى والأموال .

وأسوأ من ذلك ما فعله المغول والتتار أيام جنكيز خان الذى خرب بلاد ما وراء النهر ودمر سمرقند وبخارى ووسط إيران ، وهولاكو الذى خرب بغداد وجعلها قاعًا صفصفًا وهدم من المدارس والمساجد ألوفًا ، وأحرق وأغرق من الكتب مقادير تفوق كل تصور ، كل هذا أفقر عالم الإسلام ، وأكمل ما ارتكبه طغاة الملوك ووزراؤهم ولهذا كان شرق عالم الإسلام فى إيران والعراق قد تحول إلى خراب شامل ، وبغداد التى كانت زهرة مدن الدنيا أصبحت قرية مهجورة مخربة والعراق كله غرق فى الفقر والخراب ، وكيف يرتقى فكر فى هذه الأرض اليباب كلها ، واقرأ عن ابن واصل والمقريزى تفاصيل الأهوال التى نزلت بأمة الإسلام فى تلك العصور السوداء .

* * *

من هذا الخراب كله استثنى الله سبحانه بلاد مصر ومعظم الشام فإن جهاد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، ثم صلاح الدين الأيوبى انتهى بإعادة الوحدة الإسلامية وقضى على اثنتين من إمارات النصارى وكسر ظهر المعتدين الصليبيين ، وأقام دولة الأيوبيين (٥٦٤ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٦٩ ـ ١٢٥٠ م) ، والمماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٣٨١م) ثم البرجية (٦٨٤ ـ ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) هذه الدول صانت مصر والشام من الخراب ، بل كسرت ظهر المغول والتتار ثم استخلصت بقايا الشام من الصليبيين ، فظلت سلطنة مصر والشام حصن الإسلام والعروبة والفكر الإسلامى العربى ، فتقاطر العلماء عليها وأصبحت بلادها فى مصر والشام مثابة الفكر العربى وموئله ، ومن غرائب خصائص مصر أن الفاطميين حكموها من (٣٥٨ ـ ٥٥٥ هـ / ٩٦٨ ـ ١١٦٠ م) وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون

حصن الدعوة الشيعية وأقاموا الدعـاة ومراكز الدعوة وأنفقوا الأموال ليكسبوا مصر إلى الشيعية ، ثم انتهى أمرهم فيها بعد قرنين من الزمان دون أن يخلفوا فيها شيعيًا واحدًا وبقيت مصر كتلـة إسـلاميـة سُنية واحـدة يعيش معهـا أقبـاط مصر « وهم الطـريق المستقيم بين المسيحيين فى هـدوء وأمـانـة » ، والجامـع الأزهـر تحول إلى أكبر مـركـز للإسلام والسُّنـة من أيام صلاح الدين ، وما فعلـه هذا الجامع الجليل الذى يعتبر بحق أعظم جامعة فى الدنيا منذ تحويله إلى مسجد وجـامعة للسُّنة ، والجامعة أيـــام صلاح الـدين (٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـــ) لا يفى بتفصيلـه هـذا الموجز ، فمن أقـاصى المغـرب ومن الأندلس الذاهب ونـواحى المغرب ومن قلب إفريقية إلى أقصى بلاد الملايـو وأندونيسيا تقاطر طلاب العلم يدرسون ويحفظون ويعلمون والطلاب يدرسون ، بل أنشىء فيه ما يمكن أن يسمى بمدينة جامعية ، فقـام فيه رواق المغاربة ورواق الملايو ورواق الأتراك ورواق السودان ورواق شنقيط (مالى) ، وغيرها وألـوف بعد ألوف من الطلاب درست فيه وعاشت على جراياته وأوقافـه ، وهذا الجامع وحده تكفل بإحياء علوم السُّنة جميعًا إلى يومنا هذا فوق الألف عام ، والأزهر ولـد مئات المدارس ومعاهد العلم حتى إنَّا لنجد اليوم أزهرًا فى أندونيسيا وآخر فى ماليزيا وأزهرًا فى السودان وإن شاء الله سينشأ أزهر فى قلب أوروبا وآخر فى قلب أمريكا .

فى حـدود سلطنـة مصر والشام هـذه التى أخـذ الفقـر يشتد عليهـا بسبب سـوء سيـاسات الأيـوبيين والمماليك وحيلهم إلى سرقة الـرعية حتى بلغت السرقـات والنهب ذروتها بعد دخول مصر والشام فى دولة الأتراك العثمانيين ابتداء من سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) لأن الأتـراك العثمانيين بعـد أن بلغت دولتهم ذروة قـوتها أيـام سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) تحولت إلى دولة سرقـة ونهب لأموال الرعية لأن الأتراك بطبعهم يأخذون ولا يعطـون وكانت إدارتهم إدارة جمع أمـوال ، وفى كل ناحية أقـاموا جماعـة من أهل القـوة يقولـون الضبط (ضبط الأمن) والـربط (ربط الأمـوال) فلم يضبطوا الأمن ولكنهم ربطـوا الأموال وجعلوا عليهـا فى مصر والشام جماعة من بقـايا المماليك وهم البكـوات فاشتد الفقـر والخراب وهبط العلم والفكر نتيجـــة لـذلك أكثر فأكثر ، لأن بكوات المماليك فى العصر التركى كانوا ـ حرفياً ـ لصوصاً بل قطاع طرق .

هذا هـو الإطار السياسى والاجتماعى الذى نشـأ فيه وتزايد ركـود الفكر والعلم ،

والركود هنا معناه أن الفكر توقفت مسيرته لقلة طالبه وندرة القادر عليه ، وقد تحدثت سابقًا عن بعض مظاهره وأضيف الآن تفاصيل أخرى ، فكل مذهب من مذاهب الفكر توقف بل تراجع وهبط مستوى الفكر هبوطًا تامًا ، ولم يعد يظهر من العلماء إلا قلة ذكرنا فيما مضى بعضهم ابن خلدون الذى يعد سراجًا توهج فى الظلام ، وابن بطوطة محمد بن محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (٧٠٣ ـ ٧٩٩ هـ / ١٣٠٣ ـ ١٣٩٦ م) وهو أعظم رحالة فى التاريخ حتى العصور الحديثة ، فهذا الرجل النابغة ولد طلعة رحالة ندب نفسه للطواف فى بلاد الإسلام ووصفها وصفًا دقيقًا وقدم تقريرًا عنها إلى أمة الإسلام يطمئنها فيه على أنها ما زالت بخير بعد نكبات المغول والصليبيين ، وهذا التقرير البديع العظيم يسمى « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهذا الرجل الكريم يهتم جدًا بذكر مراكز العلم والدراسة والزوايا والخانقاوات وزوايا الصوفية التى كان أصحابها لا يعرفون فى دولة الإسلام العريضة حدودًا أو قيودًا ، والعالم المترحل والتاجر المكتسب وطالب العلم الطموح والحاج التقى يحل حيث شاء من عالم الإسلام سهلاً ويلقى أهلاً ؛ لأن دار الإسلام واحدة وأمة الإسلام واحدة وقلوب الناس ظلت دائمًا عامرة بالخير ، أما الحكام فكانوا فى مجموعهم أوشابًا ضارة لا يحسب لهم فى حساب الحضارة حساب .

* * *

وسنخصص بقية هذا الحديث لمن حملوا لواء العلم والفكر والأدب فى عالم الإسلام فى عصور الركود ، وسنختار منهم خيار الخيار وسنتحدث كذلك عن استمرار ظاهرة الموسوعية والحرص على تسجيل التراث محافظة على أمجاد أمة العروبة والإسلام من الضياع .

فى طريقنا إلى قلب عصر الركود يلقانا شاعر زهدى يبدع حقًا هو ابن الفارض أبو حفص عمر بن على السعدى ، وهو مصرى ولد فى القاهرة سنة (٥٧٦ هـ/ ١١٨١ م) فى بدايات العصر الأيوبى وظهوره هنا إرهاص بانتقال مركز الفكر إلى مصر ، وقد خلقه الله روحًا صافية زاهدة فى هذه الدنيا فدرس علوم الدين وتزهد وسكن موضعًا من جبل المقطم كان يسمى وادى المستضعفين لتجمع الزهاد فيه ، وتاقت نفسه إلى الحرمين

فخرج إلى الحجاز بعد وفاة والده وأقام هناك خمس عشرة سنة تفتحت خلالها عليه فيوض الحب الإلهى وتجلى عن شاعر زهدى لم يصل إليه فى تاريخ الفكر الإسلامى نظير ، وطار شعره الزهدى كل مطار ، وعندما وصل مصر عائدًا من الحجاز لقى أهلها مرحبين به ، واتخذ لنفسه مجلسًا فى قاعة الخطابة بالأزهر الشريف ، وظل يلزم مكانه يتعبد ويقول شعر الحب الإلهى حتى توفى فى القاهرة سنة (٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) ودفن فى سفح جبل المقطم .

كان ابن الفارض زاهدًا صادق الزهد ، وشاعرًا رائع الشاعرية ، وكان يرسل معانيه الزهدية فى أبيات فى رقة النسيم وديوانه حافل بأبيات مثل قوله :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء ونور ولا نار وروح ولا جسم

وتائيته الكبرى ديوان الحب الإلهى ، وتقع فى ٧٦٠ بيتًا ليس فيها بيت ركيك أو معنى متكلف أو مبتذل ومطلعها :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأس محيا من عنا الحسن جلت

ومن أقواله فى الحب الإلهى :

فإن شئت أن تحيا سعيدًا فعش به شهيدًا وإلا فالغرام له اهل

وهو يتحدث فى ديوانه عن الحب الإلهى الصافى ، ومن أجمل أبياته قوله :

خفف السير واتئد يا حادى إنما أنت سائق بفؤادى

وقد شبهه مؤرخ التصوف الإسلامى رينولد نيكلسون بأعظم المتصوفات الكاتبات فى الغرب المسيحى ، وهى تيريزا دى جنوس أو تيريزا دى سيجوفيا (شقوبية بأسبانيا) وكتابها الصوفى المسمى بالمنازل أو المقامات Les Morodas قطعة من الأدب الزهدى المسيحى البديع ، وتيريزا هذه هى التى أنشأت جماعة الراهبات الحافيات Les Des-Colzas وقد أنشأت تلك الجماعة أديرة للراهبات ومراكز لعلاج الفقراء فى نواحى الدنيا كلها ، واحد منها مشهور عندنا فى شبرا فى مصر وهى كنيسة ست تيريزا التى يتبرك بها المسيحيون .

وإذا كان ابن الفارض شاعرًا رفيع الشعر ظهر فى بداية عصر الركود كأنه شهاب

شق السماء فى ظلام الليل ، فلنذكر شاعرًا زهـديًا آخر من أهل مصر هو البوصيرى أبو عبد الله شرف الـدين محمد بن سعيـد البوصيرى ، الذى ولـد فى بوصير قـوريدس بين الفيوم وبنى سويف سنة (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) ، وأمه من دلاص ولهذا كان يسمى نفسه بالدلاصيرى .

وقد اشتهر البـوصيرى بقصيدته المشهورة بـالبردة ، وهى من أرك الشعر وأبعده عن إلهام الشاعرية وصفـائها ولكنها كانت ذبالة أضيئت فى ظـلام دامس فبدت للناس ولا تزال تبدو كأنها مصباح منير وقد سميت بالبردة البوصيرية تشبيهًا لها ببردة كعب ابن زهير التى ألقاها بين يدى الرسول ﷺ فصفح عنه ، وخلع عليه بردته رفقًا بحاله لا إعجابًا بشعره ، وكان الرسول ﷺ واسع الصدر بالناس رحيمًا ، وعلى نسق بردة كعب ابن زهير ومطلعها :

بـانـت سعـاد فقلبى اليـوم متبـول   يكبل أثـرهـا ــ لم يعـد ــ مكبـول

سار البوصيرى فى صياغـة بردته فبدأها بأبيات غزليـة ركيكة صعبة على التلاوة لتكلفه فيها :

أمن تـذكـر جيران بـذى سلم   مـزجت دمعهـا جرى من مقلـة بـدم

أم هبت الـريح من تلقـاء كـاظمـة   وأومـق البرق فى الظلماء مـن أصـم

وبعد عشرة أبيات من الشعـر الغث يدخل البوصيرى فى مدح الـرسول ﷺ دخولاً ثقيلاً فيه الكثير من عيوب الشعر :

وكيف نـدعـو إلى الـدنيـا ضرورة من   لـولا لم تخرج الـدنيـا من القـدم

محمـد سيـد الكـونين والثقليـ   ـن مـن عـرب ومن عجـم

نبينـا الآمـر النـاهى ، فـلا أحـد   أبـر فى قـول لا منـة ولا نعم

وعلى هذا الغرار يستمر صاحبنا فى شعره هـذا حتى يتم بردته مائة وثلاثة وستين بيتًا ، وأغرب ما فى هذه القصيـدة سيرها فى آثار بردة كعب بن زهير فكأن ستمائة سنة من الشعر لم تـدخل على هذا الفن تعبيرًا فهل بعد هـذا ركود ، وقد تـوفى البوصيرى فى

سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، وهى سنة سقوط بغداد وخرابها على أيدى المغول .

وأكتفى من شعراء العصر بهذين المثالين فلا معنى لأن أثقل عليك بأمثال صفى الدين الحلى عبد العزيز بن سرايا من أبناء الحلة فى العراق (٦٧٧ ـ ٧٥٠ هـ / ١١٧٨ ـ ١٣٤٩ م) وابن نباتة (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ / ١٢٨٧ ـ ١٣٦٦ م) وأمثالهم ، فهؤلاء ليسوا شعراء أو مفكرين ، ولكنهم نظامون مولعون بالمحسنات البديعية التى تتنافى مع أى جمال شعرى .

وعلى ذكر المحسنات اللفظية أقف بك عند أشهر ناثرى ذلك العصر وهو القاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى (٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ / ١١٣٤ ـ ١١٩٩ م) الذى لم يكن قاضيًا ولا فاضلاً ، وهو من كُتَّاب الدولة الفاطمية ولكن أمره اشتهر أيام صلاح الدين الأيوبى فقد كان رئيس ديوان الإنشاء عنده ، ونثره كله سجع وزينة وجناس وتورية دون معنى يذكر وهو فى كتاباته أثقل من أبى القاسم الحريرى ، ومن أسف أن هذا الرجل أثقل على النثر الفنى بسجعاته وتورياته وتكلفاته حتى قضى على عنصر الإلهام والإبداع فيه وظل النثر على ذلك الشكل الجامد البارد حتى العصر الحديث .

وقد حدثتك سابقًا عن الحُفاظ ـ أى العلماء الذين حولوا أنفسهم إلى خزائن كتب وأثقلوا رءوسهم بالمحفوظ حتى لم يعد فيها مكان للتفكير ـ ولكننا لا بد أن نستثنى ابن تيمية وهو تقى الدين أحمد بن عبد السلام الحرانى (٦١١ ـ ٨٢٧ هـ / ١٢٦٢ ـ ١٣٢٨ م) وهو شامى من أهل فلسطين وكان حافظًا وفقيهًا جليلاً ذا رأى وفكر ، وقد عاش فى عصر خطر تعرضت فيه الأمة للغزوات فكان يخرج للجهاد ويخوض المعارك ، وكان رجلاً حرًا جريئًا يقول رأيه دون نفاق وكان شديدًا على معاصريه من فقهاء السلطنة لا يزال يختلف معهم فيشكوه إلى السلطان فيدخله السجن ثم يخرج منه ليعود إليه حتى دخل السجن ثلاث مرات توفى فى آخرها ، وكان الرجل حنبليًا متشددًا تصدر منه بين الحين والحين آراء ينكرها أهل عصره مثل قوله : إن زيارة قبر الرسول ﷺ غير واجبة فآذى بذلك مشاعر المسلمين ؛ لأن زيارة الحرم النبوى إن لم تكن واجبة شفاعًا فهى واجبة عاطفة وحبًا .

* * *

obeikandl.com

بِدَايَـةُ النُّهُـوضِ

بهذا الفصل والفصل القـادم والذى يليه أقـف بهذه الدراسة التى أجهـدت نفسى فيها ـ والقارىء معى ـ وأعتذر له عن ذلك ! فقـد كانت غايتى منذ البداية أن أعيد النظر فى تاريخ الفكـر العربى وأعيـد تقييمه ووزن رجـاله وثمراتـه بالميـزان الصحيح الذى ينبغى أن يـوزن به كل عمل فكـرى ، وهـو ميزان الصـدق والجدوى العائدة منـه على الإنسان ، والاحترام لحقوقه وحرياته وكيانه وكرامته .. ونحن ما زلنا مع الأسف ندرس تاريخنا الفكرى ونقـومه ونزنه بمقاييس وضعها رجـال من أهل القرن الرابع الهجرى وما حـوله ـــ أى قبل ألف سنة ـــ مقاييس هنـدسة الألفـاظ وافتعال المعـانى وتوازن العبارات وعذوبة الكلمات ، وما إلى ذلك مما ابتكـره أئمة الأدب والنقد الأدبى فى تاريخنا من أمثال أبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابىء (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) ، والصاحب ابن عبـاد أبـو القـاسم إسماعيل بن عبـاد (ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) وبـديع الـزمـان الهمـذانى أحمد بن الحسين بن يحيى (ت ٣٩٨ هـــ / ١٠٠٨ م) ، والثعـالبى أبى منصـور عبد الملك بن محمـد بن إسماعيل صـاحب « يتيمة الـدهر » (ت ٤٢٩ هـــ / ١٠٣٧ م) ، وأبى الفـــرج الأصفهـانى صـاحب كتاب « الأغـانى » (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) ، وأبي هلال العسكرى الحسن بن عبـد الله بن سهل بن سعيد صاحب كتاب « الصـــناعتين » (ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤م) ، وابن رشـيق القـيروانى أبى على الحسـن (ت ٤٥٦ هـــ / ١٠٦٤ م) ، صـاحب كتـاب « العمـــدة » ، وأخيرًا شيخ نقـاد الفكـر والحضارة فى تـاريخ الفكر العـربى وهو عبـد الرحمن بن خلـدون الذى تحدثنـا عنه ، وخـلاصة رأيـه فى الفكر والأدب والإنشـاء الأدبى أن الأفكـار ليست بذات قيمـة لأنها متوارثة وملقاة على الطريق فى متنـاول أى إنسان ، ولكن الإبداع الأدبى كله يتوقف على الأسلوب والألفاظ وهذا ـ مع تقديرنا البالغ لابن خلدون ـ أسوأ مقياس يقاس به الفكر ويقدر على أساسه المفكرون وخاصة إذا صدر عن رجل ميزته الكبرى أنه مفكر ، ولكنه كان ابن عصره لم يتجاوزه إلا فى النادر .

ومن كل أسف أن دراسـاتنا الأدبيـة والفكريـة ما زالت تقـوم على هذه المقـاييس والقواعد التى وضعها رجال عاشوا فى عصور كان الفكر العربى كله فيها فى حالة إغماء

أعقبتها غيبوبة أو « كوما » ثم تحجر وقام الجماعون بتحنيطه ووضعه فى توابيت استمر فيها حتى العصر الحديث ، وما زال مؤرخو الفكر والأدب عندنا يقولون : قال الثعالبى فى اليتيمة والصفدى فى الخريدة ، وأبو هلال العسكرى فى الصناعتين ، أو ابن رشيق فى العمدة ، مع أن هذه كلها آراء وأحكام ولدت ميتة وتعفنت مع الزمن ، بل الأعجب من ذلك ما تراه من بعض أساتذة الأدب فى جامعاتنا اليوم من كلام فى نظريات أبى هلال العسكرى أو أبى بكر الصولى وابن رشيق فى النقد الأدبى ، وهذا فى ذاته يدل على تجمد الدراسات الجامعية عندنا اليوم ووقوفها عند الماضى وتحولها إلى مدارس وخنقاوات وتكايا ، كتلك التى كثرت فى العصور المملوكية وقد تحدثنا عنها وعن أثرها فى تدهور العلم والعلماء .

وهذا الكلام عن ميلاد عصر النهوض الذى نعيشه لابد أن يكون موجزًا جدًا ؛ لأن ذلك العصر بدأ من أقل من قرنين من الزمان ، فقد بدأ بالضبط فى ظهر أول يوليو ١٧٩٨ عندما هبطت قوات الجيش الفرنسى وعددها ٣٢,٠٠٠ مقاتل على رأسها الضابط الشاب نابليون بونابرت شاطىء العجمى فى الإسكندرية معلنة بذلك بدء نهاية عصر المماليك وبدء نهاية العصور الوسطى لعالم العرب ، أما النهاية نفسها فكانت ضحى ١٣ يوليو ١٧٩٨ عندما تمزق جيش المماليك إربًا وفر الباقون من بكواتهم وجنودهم إلى القاهرة بعد معركة امبابة التى يسميها الأوروبيون معركة الأهرام ، نحن نسميها باسم المكان الثابت ، وهم يسمونها باسم الزمان المتحرك ، وفر بكوات المماليك إلى القاهرة وحمل كل منهم ما استطاع من ماله وجواهره وسلاحه وانطلق هاربًا على وجهه إما إلى الصالحية فى محافظة الشرقية فى أثر إبراهيم بك الهارب إلى الشام ، وإما فى أثر مراد بك الذى هرب إلى الصعيد ، وقد كان معظمهم على أى حال قد حملوا معهم أغلى ما يملكون من ثروة ؛ لأنه كما يقول جـ كريستوفر هيرولد فى كتابه الممتع عن نابليون فى مصر : إن الفارس المملوكى لم يكن يعرف الخوف أو الحب وهو لا يؤسر أبدًا فى الأغلب الأعم ، فهو إما منتصر فى المعركة وإما مقتول وإما هارب بسرعة البرق التى هاجم بها عدوه ، وقد حمله هذا على أن يأخذ معه أينما سار ثروة لا يستهان بها من الثياب والجواهر والنقود فهو يرتدى فوق قميص من الموسلين عدة صدارات وقفاطين حريرية زاهية ويضعها كلها فى سراويله الحريرية الضخمة التى يتسع السروال منها

لرجل كبير ضخم ، وكان المماليك على العموم ضخامًا طوالاً فهم يختارون وهم صبيان بمعرفة خبراء وكانت ملامحهم وسيمة ، وإذا استثنينا نفرًا قليلاً من الزنوج بينهم فإنهم كانوا على حد قول ديفرنوا « رجالاً مليحى الوجوه لبشرتهم لون الزنبق » (ص ٢٧ من ترجمة فؤاد اندراوس) ، وإنما حرصت على إيراد صورة واحدة من هؤلاء المماليك ؛ لأنها تعطينا فكرة عن العسكريين المرتزقين الذين أذلوا أمم العرب والإسلام وحرموا أهلها من الحرية والفكر والرخاء (انظر هنا : جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ص ١٧٠ وما بعدها) .

وقد قتل فى هذه المعركة أكثر من نصف قوة المماليك ، أما الباقون فقد هربوا بعد أن أشعلوا النار فى المراكب التى انتقلوا فيها من بولاق إلى امبابة وبات أهل القاهرة الذين ملأهم الرعب على ضوء اللهب المتصاعد من السفن المحترقة ، باتوا فى قلق بالغ .

نقد دهيت بلادهم بشىء لم يكونوا ينتظرون أسوأ منه ، فقد هلك سادة البلد والمدافعون عنه وأولياء أموره من المماليك ومن كان معهم من الألبان والأتراك وعليهم أن يبادروا من الغد لمواجهة العدو النصرانى المنتصر الغازى والتفاهم معه على ما يمكن أن يصيب بلادهم على يد هؤلاء الصليبيين الجدد القادمين بأسلحة رهيبة من المدافع والبنادق ، وبعد أيام قابل وفد من مشايخهم رجال نابليون ثم نابليون نفسه ، وتم الاتفاق بصورة مبدئية على تعهد من جانب الفرنسيين باحترام الإسلام وأهل البلد وحرمهم وتقاليدهم ، وأنشىء ديوان أو مجلس حكم مصرى فرنسى للتفاهم على النظام الجديد للبلاد ، وعاد المشايخ ومن معهم من الأعيان إلى بيوتهم والقلق يملأ نفوسهم وهم لا يعلمون أن هذا كان أعظم حادث فى تاريخهم منذ قرون ، فللمرة الأولى يتولون أمور بلادهم بأنفسهم ويتفاوضون على حاضرها ومستقبلها دون وصاية مستبدين غاشمين جبناء من الحكام الأجانب والجند المرتزقة ، حقًا إنهم كانوا يواجهون عدوًا أجنبيًا محتلاً نصرانيًا ، ولكن المصريين الآن يتحدثون باسم بلادهم ، وواحد منهم وهو محمد كريم أقامه الجنرال كليبر حاكمًا للإسكندرية وأراد منه أن يخدم المحتل الغاصب على حساب بلاده وضميره ، فرفض فحكم عليه كليبر بالإعدام وأعدم فى ٦ سبتمبر ١٧٩٨ م ، فكان أول شهيد مصرى فى سبيل حرية وطنه منذ أيام الصليبيات ، وخلفه الشيخ المسيرى وكان ألين عريكة ، وأنشىء الديوان وكان رئيسه

نابليـون ، ومثل الفرنسيين فيـه العالمان مونج ، وبـرتولليـه ، وانتخب الأعضاء الشيخ الشرقـاوى رئيسًا فـرفض أن يلبس الجوكـار رمـز الثورة الفـرنسيـة وغضب ، وعين الجنـرال ديجا ثم خلفه دوبـوا حـاكمًا على القاهـرة ، وأظهـر الفـرنسيون أقصى مـا استطاعوا من نفاق فى الأسابيع الأولى ليخدعوا المصريين عن حقيقة الاحتلال وبلغ الأمر أن أعلن نابليـون أنه هو وجنوده قد اعتنقـوا الإسلام ، ونابليون لبـس العمامة والجبة والقفطان ولكن أحدًا من المصريين لم يصدق ذلك .

* * *

وهذا الحادث الفاصل ـ غزو الفرنسيين لمصر واحتـلالهم إياها وقيامهم بحكمها ـ هو الذى عبر عنه مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتى بالعبارات التالية الحافلة بالمعانى والتى استهل بها حـوادث سنـة (١٢١٣ هـــ / ١٧٩٨ م) فى مطلع الجزء الثـالث من تـاريخه : وهى أولى سنى الملاحم العظيمـة والحوادث الجسيمة ، والـوقـائع النازلـة ، والنـوازل الهائلة ، وتضـاعف الشرور وترادف الأمـور وتـوالى المحن واختلال الـزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابـع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التـدمير وعموم الخراب وتواتـر الأسباب ، ﴿ **ومـا كان ربك ليهلك القـرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ ، واستشهاد الجبرتى فى آخـر هذه العبارة بالآية القرآنيـة (رقم ١١٧ من سورة هود) يؤيد ما سبق أن قلناه أكثر من مرة فى هذا البحث ، وهو أن الله لا يهلك الناس إذا كـانوا مصلحين لأنفسهم ولـلأرض بعمارتها فقد رأينا مـرة بعد أخرى كيف أن المسلمين انحرفوا عن المنهج الإلهى الذى رسمه لهم ليسعدوا فى الدارين ، فحق عليهم العذاب لأنهم مفسدون ، أما نتيجة الظلم والانحـراف فى بلادنا فيصورها أحد ضبـاط الحملة الفرنسية بقـوله : ماذا تجد عنـد دخولك القاهرة ؟ شـوارع ضيقة قذرة غير مـرصوفـة ، وبيوتًـا مظلمة متداعيـة ، وأبنية عـامة تبـدو وكأنها السجون ، وحوانيت أشبـه بمرابط الخيل ، وجوًا عبقًا بـرائحة التراب والقمامة ، وعميانًـا وعورًا ، ورجالاً ملتحين وأشخاصًا يرتدون أسمالاً محشورين فى الشوارع أو قاعدين يدخنون قصباتهم كالقردة أمام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات يخفين وجوهـهن العجفـاء وراء خرق نتنـة ويبدين صدورهن المتهـدلة من أرديتهن الممـزقة ،

وأطفالاً صفر الوجوه رقاق الأجساد ينتشر الصديد على جلدهم وينهشهم الذباب ، ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت ، ومن التراب فى الهواء ومن قلى الطعام بزيت ردىء فى الأسواق العديمة التهوية ، فإذا فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت إلى منزلك فوجدته خلواً من كل أسباب الراحة ، ووجدت الذباب والبعوض وضروبًا لا تحصى من الحشرات فى انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل فتنفق ساعات الراحة وأنت تسبح فى عرقك وقد نال منك الإعياء ، تهرش وتنتشر البثور فى جلدك وتنهض فى الصباح وقد أخذ منك السقم كل مأخذ وعشى بصرك وجاشت نفسك وفسد طعم فمك وغطت جسدك الدمامل أو القروح على الأصح ، ويبدأ يوم جديد هو صورة الأمس (نابليون فى مصر الترجمة العربية ص ١٨٨) .

ولا يظن ظان أن فى هذه العبارات مبالغة فهى حقيقية ، وهى صورة مجتمع أهلكه الظلم والجهل مدى اثنى عشر قرنًا حتى بيوت الأغنياء فإن نابليون دهش عندما نزل فى دار محمد الألفى بك فى الأزبكية ليتخذها مقرًا له ، وكان الألفى أغنى المماليك فلم يجد فيها نعمة ولا أشياء لها قيمة ، لا أوانى فاخرة ولا رياشًا غالية سوى بعض السجاجيد البالية وأرائك مغطاة بحرير هالك ، ومهما يكن الألفى قد هرب به فهذا الذى وجده نابليون ليس بيت سيد عظيم غنى ، وهذه أيضًا نتيجة للظلم ، فإن الظلم ينتهى بفقر الحاكم والمحكوم وتعاستهما معاً ، وأين والله ذهبت ثروة مصر التى كانت مضرب المثل فى العصور القديمة ؟ لقد جبى خراجها دون مشقة ـ عمرو بن العاص فكان اثنى عشر مليون دينار فى العام ، فما زالت تتناقص حتى غرق البلد فى الفقر والتعاسة . وقبل الغزو التركى لمصر زار مصر سائحًا سفير إيطالى أسبانى يسمى ماريتردى انجلاريا ، فاندهش من فقر البلاد حتى أن قنصوة الغورى سلطان مصر كان يستقبل ضيوفه فى رحبة قصره فى القلعة جالسًا على دكة من الخشب وعليه ملابس كثيرة باهتة الألوان ، وهذا هو سلطان المماليك ، ولكنه كان سلطانًا لصًا وليس هذا كلامى ، بل كلام ابن إياس ؛ لأن الغورى عندما أراد أن يبنى مسجده المعروف بمسجد الغورى لم يجد مالاً يبنى به ، فصار يأمر العمال بسرقة الأعمدة والأحجار من المساجد الأخرى ، فأطلق ظرفاء المصريين على جامع الغورى اسم المسجد الحرام لأنه بنى كله من الحرام .

* * *

تلك هى بداية العصر الحديث أو عصر النهوض كما نسميه ، عرضتها عليك لكى تكون لديك فكرة عن المشوار الطويل الذى قطعناه فى أقل من قرنين من الزمان ، وما قرنان فى حساب عصورنا الوسطى ؟ ولو لم يدخل الفرنسيون مصر ويحطموا جدران السجن الرهيب الذى كنا نعيش فيه لكنا إلى يومنا هذا نعيش فى حكم مماليك من أمثال مراد وإبراهيم والبرديسى والألفى ولكنا إلى يومنا هذا نرسف فى أغلال الظلم التركى الذى عم كل أهل الدولة العثمانية وأولهم الأتراك ، فقد كانوا وهم السادة أتعس من الرعايا ؛ لأن العقلية التركية بعد عصر سليمان القانونى دخلت فى ركود رهيب ، وسليمان هذا الذى يلقبه الأوروبيون بالفخم هو الذى منح الأجانب الأوروبيين جميعًا تلك الامتيازات الغريبة التى جعلت الأجنبى يعيش فى بلاد الدولة العثمانية السعيدة أسعد من أهل البلد ، ونحن المصريين لم نتخلص من ذلك الوضع المهين إلا سنة ١٩٣٨ فى معاهدات مونتريه بعد معاهدة ١٩٣٦ ، ولا عجب في هذه الحالة أن نسمع مثلاً يقول : إن الصياد العثماني إذا أراد أن يطارد أرنبًا ركب عربة يجرها ثور ، وهذه هى طريقته فى العمل والتصرف .

***

وتاريخ الفكر العربى خلال عصر النهوض يبدأ من هذه الصورة المخيفة ، فبعد مظالم الأتراك والمماليك والاحتلال الفرنسى القصير المدى الذى تحول بعد هدنة قصيرة إلى استبداد غاشم نهاب وخاصة بعد ثورة القاهرة على الفرنسيين وقتلهم دوبوا حاكم القاهرة الفرنسى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، والفرنسيون مضوا على أى حال سنة ١٨٠١ بمقتضى معاهدة إميان مع الإنجليز الذين وضعوا أعينهم من ذلك الحين على مصر ، فرسموا سياساتهم على أساس الاستيلاء عليها وتحويلها إلى مستعمرة إنجليزية ومحطة فى طريق مستعمراتهم فى الهند وبقية آسيا وإفريقية ، وبعد خروج الفرنسيين عادت مصر إلى حكم الأتراك ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى وهو آخر أهل الفكر المصريين فى العصور الوسطى وأولهم فى العصر الحديث يضطر إلى النفاق خوفًا على حياته بعد خروج الفرنسيين شأن معظم رجال الفكر العربى فى عصور الظلم فقد خشى مغبة بعض عبارات أوردها فى تاريخه مدحًا فى بعض مظاهر الحضارة الفرنسية

مثل الديوان ونظم المحاكمة وصدق المعاملات التجارية فألف كتابًا جديدًا إلى جانب تاريخه كله نفاق وكذب وسماه « مظهر التقديس فى خروج الفرنسيس » كال فيه الذم للفرنسيين والمديح للأتراك كيلاً منفرًا وأعلن استبشاره بعودة الأتراك لحكم مصر إعلانًا كاذبًا سمجًا ، ولكننا لا نقسو فى الحكم على عبد الرحمن الجبرتى لهذا السبب فما كان الرجل إلا مفكرًا مصريًا مستضعفًا لا يأمن سيف الجبار التركى ، ولكنه لم ينج من سيف جبار مصر الجديد محمد على الذى أضمر له السوء لعبارات سمع أنه قالها فى تاريخه فى نقد نظامه فدبر اغتياله ، والمسكين سقط تحت سكاكين القتلة وهو عائد إلى بيته من شبرا فى ليلة ظلماء هى ليلة (٢٧ رمضان ١٢٣٧ هـ / ٢٢ يونيو ١٨٢٢ م) .

ومحمد على ذلك الجندى الأرناءوطى الذكى المرتزق الذى دخل مصر فى جملة جنود الأتراك الذين عادوا إلى مصر استطاع استعمال المصريين الطيبين فى الانتقال من قائد فرقة من الجند الألبان الذين كانوا يبدون كالمتسولين إلى مرشح المصريين لولاية مصر على رغم السلطان ، ثم تولى أمور مصر بإرادة شعبها وزعامة شيخها عمر مكرم ، وما كاد يستقر فى الولاية سنة ١٨٠٥ حتى عاد القهقرى بالفكر السياسى ، واتجه إلى استجلاب جند مرتزق من السودانيين ليحكم بهم مصر حتى نبهه إلى خطئه الكولونيل سيف الفرنسى ، الذى قال له : إن خير ما يعتمد عليه هم رجال بلده وإنهم فى فرنسا ينشئون جيوشهم من فلاحى فرنسا الذين يأتون بهم من لافانديه وعسفوينا ونورماندیا وغيرها ، ويدربونهم فيصبحون من أحسن الجنود ، وفعل محمد على ذلك ، وأنشأ الجيش المصرى الذى ثبت عرشه ، وقام بالفتوح العظيمة فى كل اتجاه ، والكولونيل سيف هذا الذى يعتبر بحق من منشئى جيش مصر أثبت أنه من أكثر الناس إخلاصًا لها فأسلم وتسمى بسليمان الفرنساوى ، وهذا الرجل العظيم عدا على ذكراه حاكم جبار هو جمال عبد الناصر الذى أزال اسمه وتمثاله من أحد شوارع العاصمة وقد جرى فى ذلك على تقليد نكران الجميل والعدوان على المخلصين .

وهو تقليد دائم جرى عليه الطغاة المستبدون الذين أشرنا إليهم فيما سلف من هذا الكلام .

وقد جرينا على القول بأن محمد على هو منشىء مصر الحديثة ، وهذا حق وصدق ، ولكنه لم يكن رجلاً عظيمًا لولا شعب مصر الموهوب الذى استجاب بطبعه الحضارى لنداء الحضارة ، وأكبر دليل على ذلك هو أن مصر هو البلد العربى الوحيد

الـذى اتصل فيه تقليـد أهل الفكر رغـم سوء الأحـوال وسلسلة المؤرخين العظـام التى انتهت بـابن إياس الحنـــفى واستمرت بعبـد الرحمن الجبرتـى الذى لم يكن مـؤرخًا فحسب ، بل كان مفكرًا متطلعًا إلى المعرفة بصورة تستوقف النظر ، فقد كان إذا علم أن الفرنسيين علقوا على الحوائط منشورًا خـرج رغم حظر التجول لينقل نص المنشور وفى يده شمعة ، لأن النـاس كانوا يمزقـون المنشورات الفرنسية إذا طلـع النهار ، وخلفه فى سلسلة تـواريخ مصر على باشـا مبارك ثم عبـد الرحمن الـرافعى . وهو صـاحب آخر المدونات الكبرى فى تاريخ مصر .

وفى سنـة ١٨٢٦ بـدأ محمد على ـــ بتـوجيـه من الفرنسيين ـــ فى إنشـاء المدارس النظامية بادئًا بمدرسـة أركان الحرب فى أبى زعبل ، ولم يكن من طلابها مصرى واحد ، بل كانـوا من أبناء الترك والمماليك الشركس الذين ورثهم محمـد على من المماليك الذين قضى عليهم ، وكان فيهم أرمن ويونان وكل جنس إلا المصريين ! وعندما شرع فى إرسال البعثـات فى نفس العام كـان معظم المرسلين إلى فرنسـا من غير المصريين ، والخوف من أهل البلد تقليد غبى سار عليه حكام المسلمين بكل احترام ، ولكن نصحاء محمد على من الفـرنسيين نصحـوه بأن يبعث معهم أئمـة للصلاة حمايـة لهم من الانحـراف ووقع الاختيار على ثلاثة أئمة كان منهم رفـاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) وقد عاد معظم المبعوثين إلى مصر وخدموا بصدق وإخلاص وصاروا مصريين مخلصين ، ولكن أنبغهم جميعًا كان الشاب الأزهرى الذى أرسلـوه معهم إمامًا ، فقد تفتح ذكاؤه وذهنه المصرى المتحضر فأتقن الفرنسية وتنبه إلى نواحى القوة فى حضارة الغرب ، وأصبح من أعلام الفكـر ، بل أول المفكرين العـرب المحدثين ، وهـذا المصرى الأزهرى الـذى ولد فى طهطا بمحـافظة جرجـا تعلم ووصل إلى العالميـة الأزهرية ، ثم التحق بخـدمة الجيش واعظًا وإمامًا سنة ١٨٢٤ ، ثم أرسل إلى باريس إمـامًا للبعثة المصرية ، وأثبت أنه مفكر أصيل : أتقن الفرنسية ونبغ فى النقل منها إلى العربية ، وهـو وتلاميذه نقلوا إلى العربية عشرات كتب العلم الأوروبيـة فى كل علم وفـن ، وأنشأ مـدرسـة الألسن سنـة ١٨٣٦ وبفضل رفاعـة وتلاميـذه أصـبحت اللغـة العربيـة لغة مصر الـرسمية ، وحلت محل التركيـة ، وأنشئت مطبعة بـولاق وأخذت تخرج للنـاس ذخائر العلم الحديث ، وبـدأت حركة إحياء التراث أى نقل الماضى إلى الحاضر ونقل العلم الغربى أيضًا .

وكل هذا عظيم ، ولكن الذى يستوقف النظر هـو رفاعة رافع المفكر ، فهذا الأزهرى

النابغ يؤلف كتابًا عظيمًا يسمى « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية» يتحدث فيه عن الحضارة الغربية حديث الفاهم العارف ، فهو يمتدح الحرية والديمقراطية ويعجب بالبرلمان والصحافة ، وحريتها ، وتعجبه عناية الناس بشئون المدن والبلديات ، وتستوقف نظره نظافة المدن وجمال تنسيق شوارعها وأشجارها ورشها بالماء وهى أشياء نسيناها نحن فى مدننا اليوم ، ونرتد بها اليوم إلى الوراء ، فتصبح قرى ضخمة أو تجمعات سكانية بلا نظام ولا هيئة ولا قانون بلديات ؛ لأن الذين يشرفون على شئون المدن عندنا اليوم يقفون عشرات السنين وراء رفاعة الطهطاوى ، وهذا الشيخ الأزهرى يمتدح التمثيل والمسارح والمسرحيات والأوبرات بينما شيوخنا اليوم لا يكادون يحفلون لذلك ، وجامعة الأزهر الجديدة التى استحدثوها أيام عبد الناصر ليس فيها إلا القليل جدًا من الأساتذة من مستوى رفاعة ، لأن هذا الرجل قرأ كتب مفكرى عصر الأنوار ، وتحمس لمونتسكيو ، وقال إنه ابن خلدون الغرب ، ورفاعة رافع الطهطاوى ذلك النابغة الذى كتب هذه المعانى الجليلة عاد فأكدها فى كتاب آخر يعتبر وسام شرف على صدر الفكر المصرى هو « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وهو بلا شك علامة واضحة جدًا فى طريق نهوض الفكر العربى كله ، فهذا الأزهرى يرى أن أهل باريس أكثر حضارة من غيرهم ؛ لأنهم يعرفون معنى العلم والنظام والفن والجمال ، ويجعلون بلدهم عاصمة النور ، وهو لا ينكر سفور المرأة الفرنسية مع الحشمة والوقار والأدب واحترام الأسرة ، ويدعو إلى خروج المرأة إلى ميدان العمل ، ويرى أن ذلك يشعرها بكرامتها ويخرجها من ظلام حياة الحريم ومؤامراته ، بل هو يؤمن بالحرية والدستور ، ويقف بفكره مع الشعب الفرنسى الذى ثار على الملك شارل العاشر وأسقطه وأتى بملكية لوى فيليب الدستورية ، وتشاء مصادفة سعيدة أن يذهب إلى السودان بعد إغلاق سعيد بن محمد على للمدارس فى مصر ، ويعمل فى المدرسة الابتدائية التى أنشئت فى الخرطوم ، وهذه المصادفة رمز على وحدة وادى النيل ، ثم يعود إلى مصر سنة ١٨٥٤ ويوليه محمد سعيد وكالة مدرسة الجهادية ، وكان ناظرها ذلك الرجل العظيم سليمان الفرنساوى الكولونيل سيف ، وهكذا يلتقى هذان العلمان على بساط العلم وخدمة الوطن المصرى ، بل إن هذا الرجل ينشىء سنة ١٨٧٠ مجلة « روضة المدارس » أول صحيفة ثقافية فى مصر ، وفيها يكتب نفر من أعلام النهضة الفكرية : عبد الله فكرى باشا الشاعر والمسيو بروكش باشا ناظر

مدرسة اللغة المصرية القديمة وطليعة الأجبتولوجيين ومحمد على البقلى باشا طليعة الأطباء فى نهضة مصر الحديثة ، وهو من تلاميذ رفاعة ، ومحمود باشا الفلكى من طلائع أهل العلوم فى مصر ، وصالح مجدى الأديب الذى خلف لنا كتابًا جميلاً عن حياة أستاذه رفاعة اسمه « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » ، وأحمد ندا عالم النبات ، وأبو السعود أفندى محرر جريدة « وادى النيل » والشيخ حمزة فتح الله رائد اللغويين والنحويين العرب فى العصر الحديث ، والخلاصة أن رفاعة رافع بنشاطه المتجدد وذكائه المتوقد وإيمانه العميق ببلاده والعروبة والإسلام كان مدرسة ورائد نهضة وباعث فكر ، وقبل رفاعة لم يكن هناك فكر عربى حى ، وبعده تستطيع أن تتحدث بحق عن ذلك الفكر العربى الذى نهض به رفاعة رافع الطهطاوى وزملاؤه وتلاميذه ، فأكمل بذلك ما كان يحلم به شيخه حسن العطار شيخ الأزهر فى أيامه ، وهو كذلك كان شيخًا عالمًا شاعرًا مجددًا واسع الذهن ، وهو فى تاريخ نهوض الأزهر شعاع الفجر الذى سيصبح على يد محمد عبده وجيله نورًا باهرًا .

ويلى رفاعة الطهطاوى فى قيادة النهضة الفكرية فى مصر على باشا مبارك (١٨٢٤ ١٨٩٣ م) وهو مثله مصرى صميم من الريف ، مثله فى ذلك مثل أحمد عرابى ومحمد عبده وسعد زغلول وغالبية من قام على أيديهم بناء مصر الحديثة ، فإن على مبارك من أبناء قرية برنبال الجديدة مركز دكرنس (محافظة الدقهلية) وهو من أسرة طيبة ، ولكنه لقى فى حياته شقاء بالغًا يرجع معظمه إلى سوء أحوال مصر خلال ذلك العصر ، فهو عصر إسماعيل بما فيه من تطورات وأزمات وتغيرات وشدائد حاسمة ، وقد شق على مبارك طريقه بجهد بالغ وإصرار يدعو إلى الإعجاب ولكن سيرته تقص كذلك جانبًا من شقاء الفلاحين المصريين أيام سعيد باشا وإسماعيل باشا وقد نجح فى النهاية فى دخول كُتَّاب قرية أبى العز ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية بقصر العينى ، ثم مدرسة أبى زعبل ثم مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ثم أرسل فى بعثة إلى فرنسا ليدرس الهندسة (١٨٤٤) ثم عاد إلى مصر مهندسًا ، وتعرف بذلك الرجل العظيم سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى إذ ذاك ، ثم أصبح ناظرًا للمهندسخانة وأرسل للاشتراك في حرب القرم ثم عاد واشترك فى مشروعات هندسية كبرى ، وعندما أنشئت الوزارة المصرية الأولى سنة ١٨٦٨ تولى وزارة الأشغال والمعارف ، وهو أول مصرى يصل إلى الوزارة من أيام الفراعنة ، وهنا فى وزارة المعارف قام على مبارك بدور حاسم

فى نهضة مصر العلمية فهو الذى وضع لائحة قانون التعليم وأنشأ المدارس الابتدائية مايو ١٨٦٨ وأنشأ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ ، ودار الكتب ١٨٧٠ ، ومجلة « روضة المدارس » وألف كتاب « الخطط التوفيقية » على غرار « خطط المقريزى » وهو كتاب جليل فى عشرين مجلداً ، وإذا كان دور على مبارك فى النهضة العلمية عظيمًا فإن دوره فى الكفاح الوطنى كان قليلاً لأن على مبارك كان من رجال السلطان يؤثر الطاعة للحاكم ولهذا كان موقفه من الحركة العرابية غير مشكور ولكنه على أى حال قام بدور عظيم فى الحركة العلمية والفكرية ، وعندما توفى فى (١٤ نوفمبر ١٨٩٣ م) انتهى دور رجال الدولة فى النهضة الفكرية وانتقلت قيادتها إلى الشعب فقد كانت الثورة العرابية قد قامت ونامت ودخلت البلاد تحت الاحتلال الإنجليزى وانتقل النشاط كله إلى رجال الشعب الذين كانوا يكافحون الاستعمار ، وكانت المدارس بكل أنواعها قد كثرت وتحطمت جدران عصور الظلام ودخلنا فى عصور الكفاح للحرية .

* * *

خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ساءت الأمور فى مصر نتيجة لسوء سياسة ولاة مصر بعد محمد على وتزايد أطماع دول الغرب فى ذلك البلد الذى كان حاكمه من أسرة محمد على عَلى رأس المتآمرين عليه ، وتبين للمصريين أن لا سبيل لهم إلى الخلاص إلا بالاعتماد على أنفسهم ومن هنا كانت الثورة العرابية التى اشتركت أوروبا كلها مع تركيا والخديوى توفيق فى إجهاضها ، وانتهى الأمر بالاحتلال البريطانى لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢ .

هنا تدخل الوطنية المصرية فى صراع الاستقلال الذى بلغ ذروته مع ثورة ١٩١٩ التى بدأت فى تاريخ مصر والشرق عصرًا جديدًا ، الثورة لم تكن مجرد ثورة سياسية عسكرية بل كانت بداية نهضة شعب سبقتها ممهدات سياسية وثقافية طويلة المدى ألمنا ببعض أطرافها فيما قلنا عن رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .

* * *

obeikandl.com

النُّهُـوضُ وَمَعْنَـاهُ

لا يستطيع أى إنسان مفرد ـ مهما بلغت ملكاتـه وقدراته ـ أن يصنع شيئًا كثيرًا ، والأعمال والحركـات الكبيرة كلها جماعيـة ، فالنهضـة لم تكن من صنع رجل واحـد ، والذين يقـولون : إن أرازموس هو باعثهـا مخطئون ؛ لأنه واحد مـن جماعة ، والأفكار العظيمة التى تحدث حركات كبرى تولد فى الغـالب فى أذهان جيل أو أجيال من الرجال ، والجيل كله بل الأجيال المتوالية تصنع التغيير العظيم الحاسم ، وأرازموس Desiderius Erasmas Raterdem Us (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦م) لم يكن إلا صاحب الدعوة الأولى .

وهـذه الدعـوة كـانت فى قلوب الكثيرين ، فلم يكـد أرازمـوس يفتح فمه داعيًـا إلى التخلص من قيود الفكر التى فرضتهـا الكنيسة على أهل الغرب حتى تجاوبت الأصداء بل قام اثنـان من الباباوات بتبنى الـدعوة هما : يوليـوس الثانى وليو العـاشر ، وتدفق السيل فكتب أريوسطو وميكيافلى ودى بميـو وكاركواتوتاسو ، وظهـر كبار الرسامين والنحاتين يحاكون أعمال الإغـريق والرومان : دوناتيللو وفرا انجيلـو ورافايلو وميكل أنجلـو ، ثم يظهر فى فـرنسا رايليـه وروفسـار ودويابى وجماعـة المجرة (لابليـاد Le Pleiade) ، ويظهر من بين هؤلاء ميكل انجلو رسامًا ومثـالاً يفوق كل ما عمل اليونان والرومان ثم يكـون ليوناردو دافنشى العجيب ، فهو رسـام ومثال ومخترع ورياضى وصـاحب خيال علمى بعيـد يصل به إلى تصميم الطـائرات ، وجاليليـو جاليلى المفكـر الكاتب المجدد ، ويخرج الفكـر الأوروبى من ظلمات العصور الوسطى ويـرتد إلى علوم الإغريق والرومان باحثًا عن الطريق ويجد طريقه فى النهاية ويكون النهوض الشامل .

وكذلك كانت حركة تجديد الفكر الغربى المعروفة بعصر الأنوار فى الفرنسية وعصر الاستنارة أو التنور فى الإنجليزية The Age Of Englkghtemment ابتداء من القرن السابع عشر ، وكـانت عمل سلسلة ضخمة من الـرجال أظهرهم مونتيسكـو وفولتير ، وجان جـاك روسو ، وسان سيمـون ، وبيكون ، وهيـوم ، وهوبز ، وبـدون هذا العمل الجماعى ويتعاون فيه الرجال من أبناء الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة لا تكون حركة فكرية واجتماعية أو سياسية ، وتلك ناحية من أكبر نواحى الضعف فى تاريخنا الفكرى والاجتماعى والسيـاسى ، فإن الفرديـة هى السمة الغـالبة والعمل الجماعى منعـدم ،

ولهذا فقد لاحظت معى فيما حكينا من تاريخ الفكر العربى أنه كله أعمال فردية لا حركات متصلة ، وهذا من أكبر أسباب الركود والتدهور مع أن روح الإسلام تؤيد الجماعة للفرد ، والله سبحانه عندما يخاطب الناس داعيًا لهم إلى الإيمان والخير والعبادة والصلاح يخاطبهم جماعة ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بَالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ﴾ (النساء ٤ / ١٣٥) فإذا أراد أن يلفت الإنسان إلى نقائصه أو يلومه خاطبه مفردًا : ﴿ يا أيها الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (الانفطار ٨٢ / ٧) و ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (التين ٩٥ / ٤ ، ٥) و ﴿ إِنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّار ﴾ (إبراهيم ١٤ / ٤) وغير ذلك كثير جدًا .

والذين يؤرخون لنهضة الفكر العربى على أنها من صنع الإمام محمد عبده أو من صنعه مع جمال الدين الأفغانى مخطئون ، فما كان هذان الرجلان ــ مهما بلغت ملكاتهما ــ ليستطيعا شيئًا كثيرًا فإذا كانا قد صنعا فلا بد أنه كانت معهما وقبلهما وبعدهما جماعات على مستواهما عملت وتجاوبت وتعاونت فكانت النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية ، فمحمد عبده سبقه وشارك فى تكوينه الشيخ درويش والشيخ محمد ظافر الطرابلسى ، وهما أول من فتح ذهنه على نور العلم ، والشيخ حسن العطار عالم الأزهر الجليل وشيخه (١٧٧٦ ـ ١٨٣٥ م) وهو الذى اختار رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) ليكون أحد أئمة البعثة المصرية إلى باريس ، وهو الذى أوصاه بدراسة الفرنسية وعلوم الغرب ، وكان كذلك شيخ محمد عبده فقد كان رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية ثم خلفه فى ذلك محمد عبده ثم تولى مشيخة الأزهر وهو رائد من رواد النهضة الفكرية العربية ، لم يأخذ حقه من العناية والدراسة بل كان الشيخ محمد المهدى شيخ الأزهر سنة ١٧٩٨ م ، صاحب الفضل الأكبر فى حصول الشيخ محمد عبده على العالمية وكادت لجنة الامتحان ترفضه بسبب علاقته بالشيخ جمال الدين الأفغانى وبسبب مقالاته الحرة فى الوقائع المصرية ؛ وهنا حسم الشيخ المهدى القضية وكان رئيس مجلس الامتحان فقال : لو كنت أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له ... وانتهى الأمر بنجاح محمد عبده بالعالمية من الدرجة

الثانية . أقول ذلك للذين يصرون على الحصول على الدكتوراه بدرجة الامتياز ثم يكونون بعد ذلك كالبالون المنتفخ تمسه بدبوس فيصبح لا شيء ..

كان هناك جيل إذن من أهل الفكر المتيقظين وهو الذى استقبل آراء محمد عبده والأفغانى وسار بها إلى الأمام وجعلها حركة نهوض فكرى اجتماعى سياسى عام لمصر والعالم العربى كله .

وتظهر روح الجماعة هذه فى إنشاء مجلة « العروة الوثقى » فى باريس ، كان جمال الدين الأفغانى عندما نفى إلى باريس قد استدعى محمد عبده من بيروت فى (١٣ سبتمبر ١٨٨٣ م) ليؤلفا جمعية العروة الوثقى من أعضاء من شتى أرجاء الوطن الإسلامى وليصدرا صحيفة باسمها (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٣٩) ، وصدر العدد الأول منها فى (١٣ مارس ١٨٨٤ م) ولقيت رواجًا واسعًا ، ولو لم يكن هناك جمهور يقبل عليها لما كان لها من رواج .

وإذا أردنا أن نلقى جماعة الرواد الذين صنعوا حقًا النهضة الفكرية العربية ونتبين روح الجماعة فى ذلك العمل ، فإننا نلقاهم بعد العروة الوثقى فى الجمعية الخيرية الإسلامية ثم فى صالون الأميرة نازلى فاضل .

ونحن لا نعرف الجمعية الخيرية الإسلامية إلا على أنها هيئة وطنية أنشئت لإقامة مدارس مصرية عربية إسلامية ، تقدم للطلاب المصريين ما كانت تحرمهم منه مدارس الحكومة التى كان يشرف عليها الإنجليز ويحرصون على ألا يتخرج فيها إلا كتاب فى الدواوين ، ولكن الحقيقة أن الجمعية كانت تجمعًا فكريًا عظيمًا ؛ فقد دعا إلى إنشائها محمد عبده فى « العروة الوثقى» فى باريس فلما أتيحت له فرصة العودة إلى مصر أنشأها مع فريق كبير من دعاة النهضة الفكرية السياسية الاجتماعية وكان الشيخ محمد عبده أول رئيس لها سنة ١٩٠٠ م ، وقد استجابت الأمة لدعوتها فتبرع القادرون من أهل مصر بالمال الكثير بل اشترك فى العمل والتبرع نفر من أفراد الأسرة الحاكمة منهم الأمير حسين كامل بن الخديوى إسماعيل فقد رأس إدارتها بعد وفاة الإمام سنة ١٩٠٥ إلى جانب رياسته لمجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٩ م ، وظل فيها حتى تولى العرش خلفًا لعباس حلمى سنة ١٩١٤ م ، وكان يقول عن الإمام : (أستاذى الذى شرف علينا روحه الآن ، ولولاه لم أكن أنا مسلمًا) .

وظل يرعى الجمعية طوال حياته وقد أنشأت الجمعية مدارس كثيرة ابتدائية وثانوية ومنها مدرسة بنات ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أن مجلس إدارة الجمعية كان يضم نخبة رواد الحركة الفكرية ومنهم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وقاسم أمين وحسن عاصم وكان شخصية جليلة مثقفة عظيمة الأثر فى تاريخ النهوض الفكرى ، وقد كان مشرفًا على التعليم فى الجمعية وعين فى نفس الوقت رئيسًا لديوان الخديوى حتى سنة ١٩٠٤ م ، وكان رجلاً مستقيمًا كالسيف مؤمنًا ثابت الإيمان بكل ما يعمل ، وهو الذى أشرف على برنامج التعليم العربى الإسلامى الصحيح فى الجمعية ، وخلفه في هذه الوظيفة بعد وفاته عبد الخالق ثروت باشا وظل يشغلها بعد أن صار رئيسًا للوزراة ثم خلفه الأستاذ محمد خلاف الذى كان من أقطاب منشئى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وفى هذه الجمعية نلقى على فخرى وكان مستشارًا بالمحكمة المختلطة وعلامة ومفكرًا جليلاً ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل الذى قال في تأبينه : إن الفقيد كان مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها . (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٦٦) .

وفى الجمعية الخيرية الإسلامية كذلك نلقى محمد فريد وقاسم أمين ولطيف سليم وغيرهم كثيرون ، وكانت الجمعية تجتمع فى مبنى قبة الغورى ثم انتقلت فى سنة ١٩١٤ م إلى سراى وسط أرض مساحتها ١٦٩٤٩ مترًا مربعًا فى درب الجماميز أوقفتها عليها السيدة خديجة برهان ، وحضر حفل افتتاح المقر الجديد السلطان حسين كامل .

وتستوقف نظرنا الجدية التى كانت الجمعية تدير بها أعمالها ، فهى تعمل بجد فى تكوين شباب مثقف وطنى عربى اللسان يعرف كيف يخدم نفسه ووطنه ، وإقبال الأغنياء والأوساط على التبرع لها بالأموال والعقارات دليل على أنها كانت حركة قومية ، وقد كان الإنجليز فى ذلك الحين يعملون جاهدين فى إيذاء مصر وتمكين الاستعمار منها .

ومن أسوأ ما فعلوه فى ذلك هو أن إلدون جورست وهو المندوب السامى الذى خلف كرومر اجتهد فى الإيقاع بين الأقباط والمسلمين ، فأوعز إلى بعض السفهاء بمهاجمة الأقباط وأوعز إلى بعض الأقباط بإقامة المؤتمر القبطى فى مارس سنة ١٩١١ م ، وبدت

فى البلاد طلائع انقسام طائفى تطرف فيه بعض الناس مثل الشيخ عبد العزيز جاويش وهو ليس مصريًا ، واندفع فيه بعض الأقباط مثل توفيق دوس ، ولكن محمد عبده وإخوانه جميعًا تصدوا لإيقاف هذا التفريق الخطر وأظهر زعماء الأقباط من الوطنية والتعقل ما قضى على تلك الفتنة ، وهذا برهان قاطع على ما يتمتع به أقباط مصر من الوطنية والحكمة وبُعْد النظر ، وفى مؤتمر المصالحة الذى عقد فى هليوبوليس نشهد مشهدًا مجيدًا من مشاهد وحدة مصر ووطنية أهلها وسنرى أكبر مظهر لذلك عندما تقوم ثورة ١٩١٩ م ، وينضم إليها إلى جانب سعد زغلول نفر من خيرة أبناء مصر من الأقباط من أمثال : مكرم عبيد ، وواصف غالى ، وسينوت حنا ، وفخرى عبد النور ، وجورج خياط ، وغيرهم ممن يرتفع بهم رأس مصر ، وفصَّلْتُ الكلام فى ذلك فى كتاب سابق لى هو « دراسات فى ثورة سنة ١٩١٩ » .

والمظهر الثانى الذى تتجلى فيه روح جيل النهضة هذا هو صالون الأميرة نازلى فاضل وهى أميرة من فرع الأمير مصطفى فاضل الذى أقصاه إسماعيل عن الحكم بالفرمان الذى حصل عليه بحصر الوراثة فى أبنائه ، مثله فى ذلك مثل فرع حليم ، ومصطفى فاضل خاف على نفسه فرحل إلى الأستانة ثم إلى باريس حيث أصبح يحتل جناحًا من أجنحة أمراء الأتراك المناوئين للسلطان ونشأت بناته نشأة تحرير ، وواحدة منهن هى نازلى أنشأت فى قصرها منتدى أو صالونًا أدبيًا كان يجمع معظم أقطاب الفكر فى مصر من أمثال : سعد زغلول ، وقاسم أمين ، وإبراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول ، وأحمد حشمت ، وحسن عبد الرازق ، ولطفى السيد ، وحفنى ناصف ، ومحمد طلعت حرب وغيرهم كثيرون ، وكانت الأميرة نازلى قد تزوجت خليل شريف باشا سفير تركيا فى باريس ثم طلقت منه وتزوجت رجلاً من سروات تونس يسمى خليل بوحاجب الذى تولى فيما بعد رياسة وزراء تونس ، وعليه نزل محمد عبده فى زيارته القصيرة لتونس سنة ١٩٠٣ م ، أيام كان منفيًا فى باريس ، وقصر الأمير فاضل هو نواة مبنى دار الكتب المصرية فى باب الخلق التى أصبحت اليوم متحفًا للفن الإسلامى ودار الكتب نفسها من آثار محمد عبده ذلك الرجل الفريد الذى خلف لنا تراثًا فكريًا باهرًا وكان على يديه إصلاح الأزهر وإخراجه من ظلمات الركود والتدهور ، وبفضله صدر أول قانون لإصلاح الأزهر سنة ١٨٩٦ .

إذن فقد كانت النهضة الفكرية فى مصر ثمرة عمل جماعى مشترك وحماسة قومية

عربية عامة ، وهذا هو الذى أعطاها تلك القوة العظيمة التى طفرت بها ، ويضاف إلى ذلك ميلاد المطابع فى مصر ، وأول مطبعة عرفتها مصر كانت تلك التى أتى بها نابليون معه إلى مصر سنة ١٧٩٨ م ، ولكن هذه عادت مع الفرنسيين إلى فرنسا سنة ١٨٠١ م ، ولكن الحادث الحاسم فى تاريخ الطباعة العربية كان إنشاء مطبعة بولاق أيام محمد على سنة ١٨٠٩م ، ولها تاريخ طويل جميل وفيها طبعت إلى جانب مطبوعات الحكومة أولى ذخائر التراث العربى ثم توالت المطابع إلى مصر وكثر تداول الكتب ما بين مؤلفة ومترجمة أو قديمة محققة ثم جاءت الصحافة ، وسلاح الثقافة الأمضى فى عصرنا والبداية عند الحملة الفرنسية بجريدتى « لا يكاد اجيبسيان » وهى مجلة علمية ثقافية كان ينشرها المجمع الفرنسى ، والثانية يومية هى « لوكوربيه ديجيبت » وكلتاهما بالفرنسية طبعًا ، لكن التاريخ الفاصل فى قصة الصحافة العربية كان سنة ١٨٢٨ م ، عندما أنشأ محمد على « الوقائع المصرية » التى حكى الدكتور إبراهيم عبده تاريخها وأعمالها فى كتابه القيم عن تطور الصحافة المصرية ، وفى ص ٣٣٥ وما يليها من ذلك الكتاب القيم ثبت بالصحف التى ظهرت فى مصر بعد المطبعة الأميرية ؛ فنجد فيها صحفاً ومجلات كان لها أبعد الأثر فى تطور الفكر العربى مثل وادى النيل (١٨٦٦م) ، ونزهة الأفكار (١٨٦٩) ، وروضة المدارس (١٨٧٠) ، والأهرام (١٨٧٥) ، والمحروسة (١٨٨٠) ، والأهالى (١٨٩٤) ، وأبو نظارة معظمة (١٨٩٧) ، والمنار (١٨٩٨) ، واللواء (١٩٠٠) ، والأمة (١٩٠٥) ، والجريدة (١٩٠٧) ، والكشكول (١٩١٤) ، واللطائف المصورة (١٩١٥) ، إلى آخر تلك القائمة التى جعلت الصحافة جزءًا من حياة الناس وفكرهم فى العالم العربى .

فى هذه الصحف ظهرت المقالات ونشأ النثر العربى الجديد الحر ، وفى مجلة مثل « البيان » التى أنشأها عبد الرحمن البرقوقى سمع الناس أصوات عباس محمود العقاد ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى ، وفى جريدة « السياسة » ثم « السياسة الأسبوعية » عرف الناس محمد حسين هيكل وطه حسين ولطفى السيد ، وفيها وفى غيرها ظهرت أسماء: إبراهيم عبد القادر المازنى وسلامة موسى ومحمد عبد القادر حمزة وأحمد حافظ عوض وقرأوا أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وولى الدين يكن وخليل مطران وغيرهم كثيرون جدًا ، وهكذا تجدد الفكر المصرى العربى وخرج من الظلمات إلى النور .

قصة الفكر العربى الحديث طويلة يعرف معظم قرائى منها أكثر مما أعرف ، وسأحاول قدر المستطاع فى الصفحات التالية أن أعين المراحل الفاصلة فى تاريخ ذلك التطور العظيم ، ولكنى قبل أن أخطو هنا خطوة لا بد أن أنبه إلى أن الفرق عظيم بين النهضة العربية فى مصر والنهضة الفكرية فى لبنان ؛ لأن إخواننا اللبنانيين وطائفة معينة منهم بالذات تصر على أن تنسب لنفسها فضل النهوض الفكرى العربى كله فالأمير فخر الدين المعنى (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥ م) عندهم صنو محمد على مع أن فخر الدين كان زعيماً دينيًا ذهب إلى الغرب ليستعين به على الدولة العثمانية ، والباباوات واليسوعيون (الجزويت) استجابوا له وأرسلوا البعثات وفتحوا أبواب معاهدهم للمسيحيين وذلك كله صحيح .

ولكنه لم يكن حركة نهوض فكرى عربى ونحن نعرف مكانة رجال من أمثال القس جبرائيل الصهيونى الأهدانى (١٥٧٧ ـ ١٦٤٨ م) الذى ترجم إلى اللاتينية مختصر جغرافية الإدريسى ، والمطران جرماتوس فرحات (١٦٧٠ ـ ١٧٣٢ م) ، ويوسف سمعان السمعانى (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨ م) وأنا شخصيًا مدين بالكثير لأعمال واحد من هؤلاء وهو الخورى ميخائيل الغزيرى (ت ١٧٩٤ م) أول من قام بفهرسة مخطوطات الاسكوريال فى إسبانيا وما أكثر الساعات التى قضيتها مع كتابه الفريد « المكتبة العربية الاسكريالية » .

ولكن هذه كلها كانت فى الحقيقة خدمات للعرب فى المقام الأول ، أما النهضة الفكرية فى بلاد الشام ومنه لبنان فترجع حقًا إلى ما بين سنتى (١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ م) وهى سنوات الحكم المصرى للشام أيام محمد على وابنه إبراهيم ؛ لأن بعثات البابوية والجهات الأوروبية كان جهدها مقصورًا على المسيحيين وحدهم ، فلما جاء الحكم المصرى ومعه التحرر الكامل من الأتراك العثمانيين فقد تفتحت أبواب العلم والنهوض لكل أهل الشام من غير تفرقة دينية وأنشئت المدارس والجمعيات العلمية الإسلامية إلى جانب المسيحية ، وهنا يمكن التحدث بحق عن نهضة فكرية فى بلاد الشام ، والشيخ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ ـ ١٨٧١ م) ، معاصر رفاعة رافع هو أول عظماء المفكرين العرب من أهل الشام ويعاصر ناصيف الشيخ إبراهيم اليازجى وأحمد فارس الشدياق تحفة الفكر العربى المجدد الجرىء فى القرن الماضى وسليمان البستانى وبطرس

البستانى خاصة الذى قام بأضخم عمل تجديدى طليعى فى القرن الماضى بترجمته إلياذة هوميروس ، وهنا مكان فضيحة لإخواننا فى لبنان وهى أن هذه النزعة التى وضعها الفرنسيون والأمريكيون فى أذهان طائفة معينة من أهل لبنان خلاصتها أنهم أفضل أهل لبنان وأولى الناس بحكمه وإدارته ، هذه النزعة أساس نكبة لبنان التى يعيش مأساتها اليوم ، والأب هنرى لانانس اليسوعى الذى كان يتلذذ بمهاجمة الإسلام والمسلمين ومعاصره الأمريكى دانييل يليس الذى أنشأ المدرسة الأمريكية التى تطورت إلى الجامعة الأمريكية لم يكن يخطر ببالهما أن يخدما لبنان بل فرنسا والولايات المتحدة وإلى أن تدرك هذه الطائفة حقيقة أمرها وهى أنها جماعة من مواطنى لبنان مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أهل لبنان وأن ولاءهم الحقيقى ينبغى أن يكون للبنان والعروبة فى جملتها وأن الولاء لباريس أو روما أو واشنطن لن تنشأ عنه إلا الكوارث إلى أن يتبينوا ذلك ويؤمنوا به ويتعرفوا على مقتضاه ؛ فلا أمان ولا سلام لهم فى لبنان وبلاد الشام كلها ، ولا أمان للبنان معهم ، نصيحة أسوقها فى الطريق إلى طائفة لها فى نفوسنا أعمق المكانات ولكن الغرب الأنانى مضلل وخطر ولا ضير عليه فى خدمة بلاده فالحياة معركة ولكن الضير كل الضير فى أن يضعف ولاء عربى لوطنه ولغته ويحسب أن الأجانب سوف يخدمونه أو يطورون وطنه على حساب أوطانهم وهذا وهم وضلال ، والدليل على ذلك أن أهل الفكر فى لبنان الذين تجردوا من هذه النزعة من أمثال ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران وأدباء المهجر أصبحوا عندنا من صناع الفكر العربى الحديث وأعلامه .

* * *

هذه التجمعات الفكرية التى أشرنا إليها فى مجالس الشيخ جمال الدين الأفغانى ومجالس الشيخ محمد عبده والعروة الوثقى والجمعية الخيرية الإسلامية وصالون الأميرة نازلى فاضل ، ولنضف هنا جمعية الاقتصاد والتشريع ونادى القضاة ودور صحف أواخر القرن الماضى وخاصة المؤيد (وصاحبها على يوسف) واللواء (جريدة الحزب الوطنى) وبقايا مجلس شورى القوانين ، كل هذه كانت الأوساط التى نشأت وتطورت فيها فكرة ثورة ١٩١٩ م ، حقًا إن تلك الثورة قامت على نحو يبدو كأنه

مفـاجأة عقب ذهاب سعـد زغلول وعلى شعـراوى وعبد العـزيز فهمى إلى دار المعتمـد البريطانى ومطالبته بجلاء بريطانيا عن مصر (١٣ نوفمبر ١٩١٨) ولكنها لم تنشأ من فراغ ، الحكومـة البريطانية رفضت الإذن لسعد وأصحابه فى السفـر إلى أوروبا لعرض قضية مصر على مـؤتمرات الصلح فى فرساى ، ثم رفضت كـذلك الإذن لحسين رشدى رئيس الـوزراء فى السفر مع عـدلى باشـا لنفس المهمة واستقـال حسين رشدى فى (٣ ديسمبر ١٩١٨) ، ثم رحل السيـد ريجينالـد وينجت عن مصر (٢١ ينايـر ١٩١٩) ، وبرحيلـه أصبحت مصائر مصر بيـد قائد القوات البريطـانية فى مصر الميجـور جنرال واطسن ثم ألقى سعد زغلول خطابه فى جمعية الاقتصاد والتشريع (٧ فبراير ١٩١٩) وفيها أعلن بصراحـة بطلان الحمايـة البريطانيـة عن مصر وطالب بإلغـائها وهـذا هو الميلاد الفعلى للثورة ، ثم نشأ الوفد وجمعية التوكيلات ووجهت الزعامة الشعبية خطابًا إلى السلطان أحمد فؤاد ليقف إلى جانب الشعب فى المطالبة بالاستقلال ، وأنذرت السلطة العسكريـة الوفد وأمرت رجـاله بالانصراف عن مطلبهم وهددتهم بـالعقاب ثم اعتقلت سعد زغلول وثلاثة من صحبه (حمد الباسل ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود فى ٨ مـارس ١٩١٩) ، ثم قبضت عليهم وسجنتهم ثـم نفتهم عن مصر ، كل ذلك أدى إلى انفجار الثـورة فى (٩ مارس ١٩١٩) كل هذه الحوادث المتـلاحقة ـ وقـد حرصت على ذكر تواريخهـا لتتضح للقارىء سرعة تلاحقهـا ـ ما كانت هـذه الحوادث تتم على هذه السرعة إلا إذا كـان هناك تمهيد فكرى لها قـامت به جماعة من أهل الفكـر قادرين على تأييـدها ودفعهـا إلى الأمام ، ولهذا بدأت هـذا الفصل بالكـلام على هذا التمهيـد وكيف تكونت مجمـوعة الرجال الـذين سيحملون عبء الثورة والسير بها ، وفى تطـور أحداث الثورة بعـد ذلك نلاحظ أن الأمـر لم يقتصر على رؤوس الثورة وقـادتها بل إن التمهيد الفكرى الطويل الذي سبقها ودعوات جمال الـدين الأفغانى ومحمد عبده وزملائهم فى تحرير الوقائع المصرية ومقالاتهم فى تلك الجريـدة الرسمية ، كل ذلك كان قد مهد الجو فى البلاد لتلقى الـدعوة وتحويلها إلى ثورة شعبيـة ؛ لأن دعوات رجال الفكـر وأفكارهم ومقـــالاتهم وخطبهم أو كتبهم لا يمكن أن تحرك الحوادث ؛ لأن الحوادث تحركهـــا الجماهير التى تثور وتحطم وتهدم وتهدد النظام القائم وترغمه على رد الفعل ـ سلبًا أو إيجابًا ـ فتتحرك العجلات ويكون الاندفاع الشعبى الذى يحدث التغيير .

ولا يمكن تصـور اندلاع ثـورة بصورة شـاملـة لكل طبقات الشعب إلا إذا كـانت

العقـول والعـواطف مهيأة لـلاستقبـال والعمـل ، ومن هنـا لا نتعجب من أن طـلائع الجماهير الثائرة كانت من طلبة المدارس العالية وطبقات موظفى الحكومة وطلبة الأزهر وزعـامـات الأقبـاط ثم عمال السكك الحديـديـة ومن إليهم ، ثم بقيـة جماهير الشعب المستجيب الغاضب التى اندفعـت إلى الشوارع تحركها أيديولـوجية الحرية والخلاص من المستعمـر والأمل فى إنشاء الـوطن المصرى المستقل ، وهـذه الجماهير ستصبح من الآن فصاعدًا القوة الدافعة للثورة العاملة على إحداث التغيير وشيئًا فشيئًا ستصبح هى البطل الحقيقى للحركـة كلها وستسير وراء الرجـل الذى فهمها وعـرف كيف يتجاوب معها وهو سعد زغلول ، وسَتُخْرِجُ الثورة من الميدان أولئك الذين لم يفهموها أو يعرفوا كيف يتجاوبون معها .

وما كان عبد العزيز فهمى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود بأقل إيمانًا بحق مصر فى الاستقلال من سعد زغلول ولكنهم عجزوا عن فهم الشعب والاتصال به فتركهم الشعب جانبًـا ومضى فى طريقه واضطروا إلى البحث عن تأييد لهم من جهات أخرى حتى لا يضيعوا تمامًا فانضموا شيئًا فشيئًا إلى السراى وتكـونت منهم حكومـات القصر والإنجليز التـى كانت تعتبر نفسهـا حكومـات العقل والرزانة والطبقات الرشيدة وأصحاب المصالح الحقيقية وما إلى ذلك من الشعارات التى نادوا بها ، أمـا سعد والوفـد وجماهير الشـــعب التى أيدتهم ، فهذه فى نظـر جماعات القصر هي الديماجوجية والسوقية ، والذى غـاب عنهم أن هذه الديماجوجية كانت هى المطلوبة ! فقد طـالما ترفَّع أهل الفكر على السوقة أى أهل الأسـواق والرعاع والعوام كما بيّنا مرة وأخرى على طول هـذا البحث ، فقد انتهى عصر طبقات أهل الحكم من الخلفاء أو السلاطين ووزرائهم وحـواشيهم ومماليكهم (الـذين أصبحوا ملوكًـا !) وبدأ عصر الشعب أى جماهير الناس .

* * *

فى الإنجليزية مَثَلٌ يقول Who Pays The Fideler Aske For The Tunes (من يدفع لعـازف الكمان أجره هو الـذى يطلب الألحان) ، والذى كـان يدفع إلى ذلك الحين كان أهل الجاه والسلطان والمال ، فكانت الألحان على هـواهم : مديح وكذب ونفاق وذل أهل الفكر على عتبات الأقوياء وإهمال الجماهير أو « الرعاع » واعتبارهم إما بهائم وإما كالبهائم وإما غير موجودين أصلاً ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة جدًا على ذلك .

* * *

أما الآن فقـد انتهى عصر السيد الـذى يدفع وحلَّتْ محلـه جماهير الشعب وهى لا تـدفع إلا لمن تحس أنه ينفعهـا ، إنما هى تقـرأ وتفهم وترضى أو لا تـرضى وتقبل على المفكر الـذى تحس فيه الأصالـة والإخلاص والصدق وتشترى كتبـه أو تقرأ الصحف التى يكتب فيها وترفض الزيف والقشور ، وهذه هى طريقة الدفع الجديدة وتلك عملتها وموازينها فى التقدير .

لهذا انصرف الناس عن مـؤلفات « صهـاريج اللؤلـؤ » وظهر الفكـر الأصيل الذى يعبر عن أفكار وعواطف ومعان إنسانية ولا عجب والحالة هذه أن نرى الثورة التى قاد صفـوفها سعـد زغلـول فجرت فى نفس الـوقت ينـابيع الإلهام الفكرى والفنى فظهـر العباقـرة من كل نوع ومكـان ، ظهر الجيل الذى نسميـه جيل العمالقة : العقـاد ، وطه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وسلامة موسى ، وأحمد حسن الزيـات ، ومصطفى صادق الرافعى ومن إليهم ، حتى حافظ إبـراهيم وكان قبل الثورة مداحًا يدور بشعره على أهل المال والجاه حتى قـال شعرًا فى مدح اللورد كرومر تحول إلى الشعب الآن وصـار يقـول شعرًا وطنيًـا إنسـانيًـا عظيمًا يهز القلوب ؛ لأنـه يخاطب الجماهير التى لا تعـرف النفـاق ، وهـو الآن يطلـب رضـاهـا بـالتعبير عن أحاسيسها ، وأحمد شوقى الذى كان شاعر القصر الذى أوسع لنفسه مكانًا محترمًا فى الفكر العربى بما أدخله من أفكار جديدة اخترع لها لغة جديدة تجمع بين الرقة والجمال والصدق ، ثم أحمد بن القاضى المفكر الذى أصبح أديبًـا ومؤرخًا للفكر دون أن يتنازل

عن ميزان القاضى ومنطقه وحقه فى إصدار الأحكام ، ولعل أعظم أدواره فى تاريخ الفكر العربى هى إدارته الحكيمة للجنة التأليف والترجمة والنشر التى كانت لسنوات طويلة قائدة الفكر العربى الحديث .

يقف بباب ولي النعم والأمراء والأميرات ويقول شعر المناسبات فأصبح شاعر الشعب وشاعر العروبة وشاعر الإسلام وشاعر المدائح النبوية الرفيعة .

ومن حوارى الإسكندرية يطفر سيد درويش منشدًا شعبيًا يتطور مع التيار إلى ملحن عظيم ومؤلف أوبرات ، ومحمود بيرم التونسى شاعرنا نحن الرعاع يصبح الآن شاعرًا جليلاً وأزجاله وكتاباته تهز أفئدة الجماهير وتغضب السلطان والإنجليز فينفى منْ مصر ومن منفاه فى مرسيليا ـ وهو يعيش عيش الكفاف ـ مثله فى ذلك مثل الوهرانى وابن قزمان يرسل إلى مصر أزجاله ومقاماته ومقالاته التى يتهامس بها الناس وتنتقل بينهم كما تنتقل المهربات ، ومن نواحى باب الشعرية يخطو إلى عالم الفن محمد عبد الوهاب حاملاً معه موسيقى جديدة يرحب بها الشعب وينسى معها موسيقى البشارف والأدوار التى تتحول بكل رجالها إلى تراث موسيقى قديم يحفظ فى المتحف ، ويرتقى محمد عبد الوهاب بألحانه إلى مستويات شعر شوقى ومن فى طبقته ويصبح منشد العصر الصداح ، ومن كوم الزهايرة مركز السنبلاوين تأتى إلى القاهرة بنت فلاحة تلبس العقال ـ أم كلثوم ـ لتصبح أعظم مغنية فى تاريخ الموسيقى العربية كلها وإلى جانب إنشادها العظيم تصبح سيدة مجتمع ومفكرة ذات آراء رفيعة وحول أم كلثوم ينشأ جيل عظيم من الموسيقيين يتصدره محمد القصبجى ورياض السنباطى ومن هذا كله تتكون الموسيقى العربية الجديدة المضاهية للفكر الجديد .

ومحمد طلعت حرب الذى كان إلى ذلك الحين يتشاغل بالتاريخ فيؤلف فى تاريخ الدولة العثمانية يتحول إلى اقتصادى ينشىء البنوك والمصانع ؛ لأن الشعب الناهض فى حاجة إلى مصارف قومية ومصانع قومية ، ويظهر محمود مختار مثالاً عجيبًا يرتد إلى مصر القديمة ويستوحى فنها لينشىء فنًا مصريًا فى المثالة جديدًا يبهر الدنيا ، فى الإسكندرية يظهر رسام عبقرى هو محمود سعيد ، ويوسف وهبى يضع قواعد المسرح العربى مع عزيز عيد وروز اليوسف وفاطمة رشدى ورجال فرقة رمسيس ، ونجيب الريحانى الذى بدأ حياته مهرجًا يكسب عيشه بألاعيب كشكش بك يتحول إلى فنان

أصيل وفيلسوف مفكر ، هـذه الحركة كلها لم ينشئها سعد زغلـول وحده إنما أنشأها الشعب المصرى العربى الذى أنشأ سعـد زغلول نفسه واستجاب لنـدائه فتفجرت فيه جوانب العبقرية ، وهنا ـ فى ذلك الجو ـ تنشأ جماعة « الديوان » وهى أول حركة فكرية واعية فى تاريخ الفكـر العربى وخلاصة رأيها : « إن عصر أدب القصـور اللفظى المنافق السطحى قد انتهى وجـاء عصر أدب الصدق والواقعية والإبداع والمعـانى قبل الألفاظ » وكل الذين ظهروا وكتبوا فى عصر النهضة هذا كانـوا نقلة ، نقلوا الفكر العربى من ركود العصور الوسطى إلى حركة العصر الحديـث ، ومن أبواب السلاطين إلى نوادى الناس ، ونقلوا التراث العـربى القديم ـ وكان قـد نسى تقريبًا ـ إلى العصر الحديث نفضـوا عنه التراب وجعلوا يبعثـون فيه الحياة بما نسميه اليـوم حركة إحياء التراث ، ونقلـوا الفكر الغربـى إلى عالم العرب وزرعـوا أشجاره وغيَّـروا بذلك شكـل بستان الفكر العـربى وأشجاره وألوانه وزهوره وثماره ، وبعد أن قاموا بهذا الدور الكبير وهو دور لم يقتصر على النقل بل تتجلى فيـه الشخصيـات والملكات ويتميـز كل منهم بمـواهب لا تنكـر فى الإبداع الفكرى المتعدد الألوان ، وكانوا على الجملة أصحاب أساليب أدبية جميلة وأفكار جديدة واطلاع واسع واحتاجوا إلى موضوعات يكتبون فيها فتحولوا فى النهاية إلى كُتَّاب إسـلاميين يكتبون فى العبقـريـات الإسلاميـة أو السيرة أو على هـامش السيرة ، حتى محمد حسين هيكل ـ الذى بدأ حياتـه الأدبية داعية مجددًا للفكر الغربى يكتب عن جان جاك روسـو ـ اتجه فى النهايـة إلى السيرة النبوية والخلفـاء الراشدين ، وهنـا فى ميدان الإسلاميات مـائدة واسعة يجلس إليها كل أديب عربى معـاصر فرغت أفكاره فمال إلى الماضى الإسلامى يغترف منه ويـدبج ما يقرأه بأسلوب جـديد ، « على هامش السيرة » لطه حسين صيـاغة جديدة لبعض صفحـات سيرة ابن هشام ، وعبقريات العقـاد كلها كتب أسلوب ، واحد منها يغنيك عن البـاقى ، وفى أسلوب العقاد الفكرى والأدبى القوى الرصين يتساوى أبو بكر وعمر وبلال بن رباح والحسين سيد الشهداء والإمام على ، بل توماس جيفرسون ، وجيته ؛ لأن عقل العقـاد وقلمه كانا مثل البلدوزر يطحن أى شىء على المائدة الإسلامية الغنية بكل ما يطـرب القارىء المسلم ، جلس نفر من أدباء الجيل التالى : جودة السحار ، وعلى أحمد باكثير ، وخالد محمد خالد ، وطاهر أبو فاشا ، وبقية أولئك المبـدعين وتضخمت بهذا النـوع من المؤلفـات أعداد الكتب دون أن تكـون فيهـا إضافـات حقيقية أو تجديـد لتصميم الفكر العربى ، كلهـا ديكور جـديد لنفس البيت

القديم ، وهنـا لا بد من ذكر ثلاثـة من مجددى الفكر العربي : جـورجى زيدان المؤرخ الأديب الـذى كان أول من وضـع تـاريخًا جديـدًا للأدب العـربى والحضارة العـربية ، وسلامة موسى .

ولكن أعظم الأشجـار الجديـدة فى حديقـة الفكـر العربى الحـديث هى أشجـار القصص : القصة القصيرة والطويلة والرواية والمسرحية ، هذه كلها أشجار جديدة جدًا فى بستان الفكر العربى ، ومن الخطأ الفادح أن نقول : إن الفن القصصى الحديث تطور للحواديت أو المقـامات فهذه أنـواع أدبية عقيم لا تتطـور ، إنها كالأقزام تـولد وتعيش وتشيخ وتموت أقـزامًا وهـذا نوعهـا ، أما الأدب الـروائى الحديث فشىء آخر تمامًـا ، شجرة جـديدة وإذا كانت الحكـايات والمقامات أشجـار جميز فإن فن الروايـة الجديد شجر تفاح والجميز لا يمكن أن يكون تفاحًا أبـدًا فإن القصص بكل أشكاله ـ هو وعاء الإبداع الفكـرى ـ لأنـه صورة الحيـاة . حياة النـاس بكل ما فيهـا من واقعيـة وصدق والقصص الجيد بناء فنى لا مجرد إنشاء وهـو لهذا أصعب الأنواع الأدبية وهنا يتجلى لنا حجـم الدور الذى يقـوم به تـوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى ويـوسف إدريس ومحمـد عبـد الحليم عبـد الله ومحمـود تيمـور ومن فى طبقتهم من بنـاة الفن القصصى العربى بشتى أشكاله ، وإن الإنسان ليدهش لذلك التوفيق البالغ الذى وصل إليـه توفيق الحكيم فى المسرحيـة ونجيب محفـوظ فى الـرواية والقصـة القصيرة ولكن دهشتنا تـزول عندمـا نذكـر أن هذين العلمين يصـدران فى أعمالهما عن إيمان صادق بمسئولية الأديب وأمانـة القلم ومعرفة تامة بأصول الفـن الذى يكتبون فيه ، وهما إلى جانب ذلك من أصحاب الاطلاع الواسع والمداومة على القراءة مع عمق الفكر والصدق فى القول والحرص الشـديد على المحافظة على المستـوى والالتزام بالمسئوليـة أمام النفس أولاً ثم أمام الآخرين .

على أن أهم ناحية فى إنشـاء الفكر الجديد هى ناحية اللغة ؛ لأننـا معاشر العرب لم ننتبه أبدًا إلى أهمية اللغة أو قيم الألفاظ ، فالألفاظ فى الأدب العربى القديم يرص بعضـها إلى جانب بعض كما تنظم الـلآلىء فى حفظ ليصير منها عقد ، وهذا هـو الأدب فى المفهوم القديم فـالألفاظ عندهم كاللآلىء تعطـى العقد شكلاً ولكنها لا تعطيه معنـى ، وقد بذل زكى نجيب محمود جهـدًا شاقًا فى كتاب « تجديـد الفكر العربى » لبيان أهميـة الألفاظ

وانتهى إلى ما انتهى إليه المفكرون غداة الثورة الفرنسية من أن الألفاظ ليست مجرد حاملات للمعانى بل هى نفسها ينبغى أن تكون معابد حية متحركة فاعلة ، والألفاظ كما يقولون هى الأدوات التى تصنع الأفكار ، واللفظ الدقيق فى موضعه المحسوب يقطع المعنى قطعًا كأنه السكين الحاد فإذا لم يكن حادًا مسنونًا فإن المعانى تظل غامضة والفكر كله يصبح خبايا ، ومن أسف أننا أسأنا استخدام ألفاظ لغتنا وضيعنا قيمها ، وانظر مثلاً كيف تستعمل أفعال التوقيت : أصبح وأضحى وظل وأمسى وبات فكلها تستعمل دون تدقيق ففقدت حدتها ولم تعد تقطع المعانى ونتيجة ذلك هو ذلك الضباب الفكرى الذى نعيشه نتيجة لضباب الألفاظ ، وهنا تأتى المهمة الحقيقية لمجمع اللغة العربية فإن وظيفته الأساسية ليست البحث عن معادلات عربية لمصطلحات علمية غير عربية ، بل ضبط معانى الألفاظ ومقاييس اللغة نفسها وضبط النحو ونحن نشكو اليوم من هبوط مستوى اللغة وجهل الناس بالقواعد ولا يرجع ذلك إلى هبوط مستوى تدريس اللغة فى المدارس والجامعات بل إلى أن الأفكار الجديدة تكتسح قواعد اللغة ونحن الذين نقوم بالكتابة نعانى هذه المشكلة ونشعر أن دقة التعبير أهم من فصاحة اللفظ ، فإن اللفظ العامى أو غير العربى إذا دخل اللغة وجرى فى الاستعمال أصبح عربيًا ، ولفظ القلم نفسه ليس عربيًا بل لاتينى الأصل Colamus ولكنه أصبح عربيًا صرفًا ، وهو وارد فى الآيات الخمس الأولى التى أوحيت لرسول الله ﷺ ، وكما أن القرآن الكريم استعمل نفس ألفاظ لغة الجاهليين وصنع منها لغة جديدة ، واللغة الجديدة صنعت حضارة جديدة ، فنحن نستطيع أن نستشير بذلك المثل الرفيع فى إنشاء اللغة العربية الجديدة والفكر العربى الحديث .

وفى هذا الميدان لا بد أن نذكر ما يمتاز به يوسف إدريس من ملكة أصيلة فى الإبداع القصصى والفنى والفكرى ، وغرر رواياته ومسرحياته أصبحت بالفعل معالم واضحة فى تاريخ الفكر العربى ، وهنا أيضًا مكان على أحمد باكثير ويوسف السباعى وثروت أباظة وإحسان عبد القدوس « الذى يملك ملكة لا تضارع فى سياقه القصصى الجميل المحكم الذى يستهوى الجماهير » ويتميز ثروت أباظة فى رواياته بجدية وأصالة وطلاوة مع اطلاع واسع على الأدب العربى ، وهنا أيضًا مكان عبد الرحمن الشرقاوى الذى كتب واحدة على الأقل من أجمل الروايات فى الأدب العربى الحديث ، والطيب صالح صاحب الطيور المهاجرة وهى من أحسن ما نقرأ فى أدبنا المعاصر ، ونعمان

عاشور وسعد الدين وهبة وكل منهم شجرة جميلة متميزة بشخصيتها وهيئتها وثمرتها ، وهنا فى ميدان القصص يكمن جانب كبير جدًا من مستقبل الفكر العربى ، ومن أعظم أشجار ذلك الفكر الجديد أشجار المفكرين الخالصين الذين يضاهون بنفاذ أفكارهم وعمق تفكيرهم أعاظم كُتَّاب الغرب ، وهنا مكان زكى نجيب محمود المفكر المجدد الأمين مع نفسه ومع الآخرين ، الذى لا يتملق الجماهير بل يحتفظ دائمًا بدور المعلم القدير والأستاذ الموجه وكاشف الطريق .

وإلى جانب هذه الاتجاهات الجديدة نجد بستان الكتابة الصحفية التى لم تقف عند تجديد الأسلوب بل ابتكرت طرائق جديدة فى كتابة العربية حملت معانى جديدة وغيرت بذلك هيكل الفكر العربى وقالبه وأنشأت نوعًا جديدًا من النثر الفنى الرفيع ، على رأس هذه الجماعة نجد محمد التابعى بأسلوبه الصحفى الممتع الذى كان يسحر القراء ونشأت منه مدرسة أدبية صحفية ، وفكرى أباظة وأمينة السعيد من كبريات رائدات النهضة النسائية والأدب الصحفى ، وعلى أمين ومصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين ومحمد جلال كشك وأضرابهم من أعلام الكتابة الصحفية .

وبين هؤلاء يقف نزار قبانى وشعراء المقاومة الفلسطينية الذين اخترعوا شعرًا عربيًا جديدًا وهم خطوة بعد إبراهيم ناجى وعلى محمود طه وزكى أبو شادى وجماعة أبولو الذين شقوا طريقًا جديدًا لكنهم وقفوا فى منتصفه .

وهنا نجد مدرسة الأدباء الذين تعلموا فى المدرسة القديمة واستطاعوا أن يوسعوا لأنفسهم مكانًا فى النهضة الحديثة : مصطفى لطفى المنفلوطى الذى أدخل بنظراته وعبراته عناصر العاطفة الصادقة مع الأسلوب الرصين ، وأحمد حسن الزيات الجواهرجى فى صورة أديب ، ومصطفى صادق الرافعى حكيم الأدباء أو أديب الحكماء . هؤلاء انتهى دورهم فى صنع الأدب العربى الجديد ، وانتهى كذلك دور جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومدرستهما التى حاولت أن تكتب الإنجليزية أو الفرنسية بحروف عربية ، ولم يبق حيًا من مدرسة الشام إلا سعيد عقل .

وهنا أيضًا نجد جماعة الأكاديميين الذين وجدوا أن صفحات المجلات والصحف أقدر على حمل أفكارهم المتدفقة من كراسى الجامعة ، هنا نلقى أنيس منصور وهو يكتب بقلم قوى سريع النبض وأفكاره تنهمر كالسيل صادرة عن فكر عميق واطلاع

واسع وإبداع أدبى متميز ، وهنا أيضًا مجال مجددى تاريخ الأدب العربى ويمثلهم شوقى ضيف بتآليفه الشاسعة فى كل مجالات الأدب العربى ، ومحمد عبد الغنى حسن الغزير الإنتاج الجيد إلى جانب ملكة فى الشعر جميلة ، ومهدى علام من أئمة مجددى اللغة ، وعبد القادر القط ، وطه الحاجرى ، والمرحوم عبد العزيز الأهوانى من أعلام المجددين للغة والنقد الأدبى ، وفى رعيل أولئك المجددين نجد أهل العلوم ممن يربطون الإبداع الأدبى بالفكر العلمى ، هنا نجد : سلامة موسى ، والدكتور أحمد زكى ، وعبد الفتاح جوهر ، ومصطفى محمود الذى يقنعك كلامه عن الإعجاز القرآنى ببرهان العلم أكثر مما يرضيك كلام الباقلانى فى نفس الموضوع ببراهين الألفاظ .

وآخر ما أضيفه فى هذا التاريخ هو أن الإبداع الأدبى الجدير بذلك الاسم يقوم أساسًا على العلم الواسع والصدق وإجادة العربية ، والقصص بالذات من أوعر المطالب لأن القصة بناء متكامل ينبغى أن يكون محكمًا من البداية إلى النهاية فلا يكفى عنوان يبهر صاحبه فينشىء حوله حكاية يسميها قصة أو رواية ، أو يبدأ الحكاية ثم لا يعرف كيف يختمها ؛ لأن القصصى الجيد فعلاً يبدأ من النهاية ، أى أن انفراج الحكاية ينبغى أن يكون واضحًا فى ذهن القصاص قبل أن يكتب العنوان ، والحوادث ليست عماد القصة بل الفكرة هى الأساس ، وكل شخصية فى الرواية هى فى الحقيقة فكرة تتحرك مثال ذلك راستكولنيكوف فى الجريمة والعقاب فهو فكرة تتحرك وتتصرف لا مجرد شاب فقير قتل سيدتين عجوزين بغيضتين فإذا لم يكن للعمل القصصى موضوع وأفكار أو وحدة أو نهاية تحول إلى مسلسلة مفاجآت أطفال كلها سطحية وبعيدة عن الواقعية أو إغراق مذموم فيها ، كما ترى فى مسلسلات التليفزيون التى تحول معظمها إلى حكايات أطفال يقوم بها رجال ونساء بلا شكل أو هيئة أو شخصية .

وأقول فى النهاية : إن تجديد الفكر العربى يقوم أساسًا على تجديد العلم أو توسيع قاعدة المعرفة والاطلاع ، وليس هناك ـ فى الحقيقة ـ كاتب كبير ، بل هناك قارىء كبير ، ومن القارىء الكبير ينشأ الكاتب الكبير ؛ لأن قدر الكاتب يتوقف على غنى الإناء الذى يغترف منه ، والإناء لا بد أن يملأ ويتجدد محتواه باستمرار حتى لا يخرج فى الدلو فى النهاية إلا الوشل والرمل والرواسب غير المرغوب فيها .

وبعد ، فهـذا ليس تأريخًا للأدب العربى أو أدبـاء العربية ، إنما هـو تأريخ للفكر العـربى وقـد عنيت هنـا بتتبـع الأفكـار والحركـات وتطـوراتها واهتممت بـالجوانب الإنسانية والصدق وأمانة الفكر ومسئوليته ، ورأيت أن أساس أى فكر نافع هو الحرية والعدل ؛ لأن النسـور المحلقة لا تعيش فى الأقفـاص ، أما التى تعيش فى الأقفـاص فهى طيـور الزينة ، وهذه ليست طيورًا إنما هى زينة فحسب .

وبعد فهـذا تاريخ طويل بـدأناه من العصر الجاهلى ، وهو فى النهـاية بحث صغير بالنسبـة لموضوعـه ، وأسأل القارىء الصفح عن الهفوات والـزلات والنسيانـات ، فقد طلبت مطلبًـا عسيرًا وأنا رجل مفـرد ، وماذا يبلغ جهـد الرجل المفـرد ؟ فالتقصير هنـا ضرورة وحتم وهذا بـالضبط ما قاله لـودفيج فان بيتهوفن وهو يتصفح السيمفـونية التى لم تتم لفرانز شوبرت ، فقد وقف حيث وقف شوبرت وقال : أين الباقى ؟ لقد ترك الكثير ، ولكنه قال أيضًا الكثير وهذا يكفيه ويكفينى .

تمت الدراسة بحمد الله